

بين موسكو و واشنطون

د . السيد أمين شلبى

دار الهلال



الغلاف للفنان:
محمد أبو طالب



« إن الذاكرة هى عاطفة ليست أقل قوة ونفاذا من الحب فما الذى يعنيه أن نتذكر ؟ .. أنه أن نعيش فى أكثر من عام واحد ، وأن نمنع الماضى من أن يمحي ويتلاشى ، وأن ندعو المستقبل لكى نضيئه ، أنه إحياء لأجزاء من الوجود ، وأن تستعيد الكائنات المفقودة ، وأن تلقى ضوءا شديدا على الوجوه والأشياء ، وأن تحارب النسيان وأن ترفض الموت» .

مفكر غربى

«قصة كلا منا قصة فذة مفردة تستحق أن تروى وتقرأ ، فلاتكاد تخلو حياة إنسان مما يجدر ذكره من مغزى أو عبرة إلا إذا كانت حياة أبله قد مرت به الاختبارات دون أن ينفعل بها» .

تربية سلامة موسى

«لا حدث يحدث بالفعل دون أن يدون»

فرجينيا وولف

مداخـــل

لم تكن الدبلوماسية أو العمل الدبلوماسى فى تفكيرى لمستقبلى حين التحقت بالجامعة أو حين تخرجت منها النصف الثانى من الخمسينات (١٩٥٧) ، إذ كان ما يشغلنى ويسيطر على صباى المبكر هو الثقافة الإنسانية من أدب وتاريخ وفلسفة وفنون وكنت أحلم بالعمل فى إحدى المؤسسات الثقافية التى استطيع من خلالها أن أواصل اهتماماتى وأنميها . وقد أخذ إشباع اهتماماتى الثقافية وقراءاتى فيها الأولوية على الدروس والمناهج الدراسية فى تخرجى من الجامعة وحيث كانت دروسها وامتحاناتها لاتلقى إلا جانبا هامشيا من وقتى الذى كنت أخصصه لقراءاتى الخارجية ، وقد يفسر هذا أنه فى شتى مراحل تعليمى لم أكن من المبرزين فى درجات النجاح والتخرج .

وقد أخذ إشباع اهتماماتى الثقافية خطا تصاعديا ومتدرجا سواء من حيث المصادر أو المستوى ، حيث بدأت

بالصحافة اليومية والمجلات الأسبوعية خاصة أقسامها وأبوابها الأدبية وموضوعاتها الثقافية ، وقد تطور هذا المستوى إلى الكتب الثقافية الشهرية التى كانت تصدرها دور الصحف وبعض المؤسسات والأفراد مثل مجلة الهلال وكتابها، ومجلتى الرسالة والثقافة ، و«الكاتب المصرى » التى كانت نموذجا للدورية الثقافية فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية وصدرت عن رؤية متكاملة وثاقبة لدور الدورية الثقافية فى تلك الحقبة ، وفضلا عن مجموعة من الكتب فى الأدب والتاريخ والفكر والفلسفة التى اختار طه حسين عناوينها بنفسه ، كانت «الكاتب المصرى» نموذجا فريدا للدورية الثقافية فى مصر . وكما عبر طه حسين كانت رسالة المجلة أن تنقل إلى الشرق خير ما عند الغرب من معرفة وتؤدى إلى الغرب خير ما عند الشرق من ثرائه الثقافى ، وقد دفعنى ذلك

إلى مستوى متقدم وهو الكتاب وتعرفت من خلاله على أساتذة الجيل: لطفى السيد ، طه حسين ، المازنى ، محمود تيمور ، سلامة موسى ، توفيق الحكيم ثم نجيب محفوظ وخاصة فى رواياته التاريخية المبكرة (كفاح طيبة ، رادوبيس ، عبث الأقدار) كما تعرفت على ترجمات للأدب العالمى خاصة الفرنسى من أمثال موبسان ، وبلزاك وأندريه جيد وفيكتور هوجو ، وفى أوائل الخمسينيات ظهرت مجلة «كتابى» التى كان يصدرها الأستاذ حلمى مراد وتتضمن عروضا لأبرز الأعمال العالمية الثقافية والفكرية ، وكانت سببا فى أن تظل هذه الأعمال فى ذاكرتى أبحث عن أصولها فى لغاتها الأجنبية وخاصة الانجليزية .

فى هذه المرحلة التى عاصرت دراستى الثانوية لابد أن أتذكر أسم المصادر والحوافز إلى اهتماماتى الثقافية ، وشأن كثيرين غيرى ، كان لمدرسى المدرسة الثانوية وبوجه خاص مدرسى اللغات العربية والإنجليزية والتاريخ والفلسفة دور خاص وحين لمسوا اهتمامى بالأدب والثقافة راحوا يشجعوننى وينمون هذه الاهتمامات وكانت الكراسات التى

أدفع بها إليهم تعود إلىَّ وهى تحمل تعليقات تنبىء عن قراءة دقيقة وتعبر عن الثقة فى أننى سوف أطور هذه الاهتمامات وأعمقها ، وأذكر أن مدرس التاريخ (لويس بانوب) هو أول من حببنى لدراسة الشخصيات حين قدم لى عمل ستيفان* زفايج من جزئين عن نابليون مترجمان إلى اللغة العربية ، أما المصدر الثانى فكان مكتبة المنصورة أو «مكتبة البلدية» أو «المكتبة الفاروقية» وكانت حقا ثرية فى محتوياتها سواء العربية أو الأجنبية ، كما كان لموقعها المطل على فرع النيل الذى يخترق مدينة المنصورة وما يحيط بها من هدوء حافزا على التردد عليها وقضاء ساعات طويلة فيها ، فضلا عن أن أمينها والمشرف عليها كان رجلا جليلا وكان واضحا أنه لم يكن مجرد موظف بل كان واضح العلم والثقافة محبا للكتب عارفا بها وحين كان يلمس اهتمامى بكاتب معين كان يقترح علىَّ أعمال كتبه الأخرى المتاحة فى المكتبة غير أن قصتى مع «المكتبة الفاروقية» والتى أطلق عليها بعد الثورة «مكتبة البلدية» قد انتهت نهاية مؤلمة ، ففى عامى الأول فى الجامعة - ١٩٥٣ - عدت فى أجازة الصيف وتوجهت إليها مشتاقا

لكى اكتشف أنها تحولت إلى مقر «لهيئة التحرير» وهى تنظيم سياسى أنشأته الثورة فى أول عهدها ، وعندما استفسرت عن مصير المكتبة قيل لى أنها انتقلت إلى أحد «المخازن» فى أطراف المدينة ولم أشأ أن أبحث عنها حتى لايزداد حزنى ، كذلك كانت بيئتى الأسرية من المصادر الرئيسية لتربيتى الثقافية ، فقد كان أشقائى الثلاث الذين يكبروننى بسنوات رغم تعلمهم جميعا فى كليات التجارة وكانت وظائفهم بعيدة كل البعد عن الأدب والثقافة ، إلا أنهم كانوا من أكثر المتذوقين للأدب فى أعماله المصرية والأجنبية والأكثر دقة وأناقة فى اختيار قراءاتهم ، واذكر أنهم قد قدموا لى من الأعمال الأدبية والفكرية ما ظلت وظل أصحابها معى حتى الآن أتابعهم بالقراءة والكتابة عنهم . وكان أحدهم ، وهو شقيقى محمد ، الذى تدرج فى عمله حتى أصبح محافظا للبنك المركزى ، يعود من أسفاره الخارجية وهو يحمل ما انتقاه من كتب جديدة ، وحيث كان التجول فى المكتبات فى المدن التى ينزل فيها أهم شىء فى برنامجه يعد فراغه من مهامه الرسمية ، هذا فضلا عن مكتبته الأدبية التى عاد بها

من انجلترا بعد بعثته الدراسية فى الأربعينيات وأوائل الخمسينات هى التى قدمت لى الكلاسيكيات الحديثة للأدب الإنجليزى من شارلز ديكينز ، وبرنارد شو وسومرست موم وكذلك العمل الضخم للمؤرخ البريطانى آرنولد توينبى والذى كان مدخلى للتعرف على هذا المؤرخ الفذ ومداومة القراءة له وعنه وكان هذا هو أساس الكتاب الذى وضعته عنه بعد ذلك بسنوات طويلة .

ومن ذكرياتى البهيجة عن هذه الأيام الجميلة تلك الساعات التى كنت أقضيها فى أيام الجمعة فى حديقة «شجرة الدر» وحيث تبدأ فرقا موسيقية فى العزف حتى يحين المساء ، وكان هذا المشهد يتكرر فى أيام الأحد فى ما كان يعرف «بكازينو البلدية» المطل مباشرة على النيل وحيث كانت تأتيه فرقا موسيقية من القاهرة تعزف ، من بين ما تعزف ، مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية وكان جمهور هذه الحفلات يتميز بالاحترام فى الملبس والسلوك ، غير من المؤسف أن هذه المظاهر الحضارية قد اختفت مع منتصف الخمسينيات ، وأصبحت حديقة «شجرة الدر» شبه مهجورة ،

أما كازينو البلدية ، فقد تحول إلى جمعية استهلاكية وامتداد لهذا التدهور لأشياء جميلة كانت قائمة ، جرى تدمير مجرى مائى كان يشق المدينة عند طرفها الشمالى وفى تقاطعه مع النيل وبنى مكانه مبنى للمحافظة .

كان من الطبيعى أن يكون انتقالى إلى المرحلة الجامعية ، (١٩٥٣) ، وأكثر من هذا انتقالى من المدينة الهادئة الوديعة إلى العاصمة بكل ما تحتويه من مراكز وتيارات ثقافية ، مرحلة نوعية جديدة فى تكوينى الثقافى وتعميق اهتماماتى الثقافية ، كما كان التحاقى بكلية الآداب أشبه بدخولى إلى منزلى فلم يكن ثمة اختيار بينها وبين كليات أخرى ، ورغم أنى سجلت نفسى فى قسم الفلسفة والاجتماع إلا أننى كنت دائم الحضور وبشكل انتقائى لمحاضرات الأقسام الأخرى مثل اللغتين العربية والإنجليزية وخاصة لأساتذتهم الأعلام من أمثال سهير القلماوى ولويس عوض ومحمد أنيس ، أما أساتذة قسم الفلسفة فكان أقربهم لى هو : د. توفيق الطويل، وأحمد فؤاد الأهوانى وعثمان أمين ويوسف مراد الذى أبدى خلال إحدى محاضراته ملاحظة نحوى ، حيث أوقف

المحاضرة ملتفتا لى مسجلا «بأني دائم الإندهاش» مضيفا أن هذا شيء مشجع حيث «إن الدهشة هى دائما أول خطوات الفلسفة» ، كما لابد أن أتذكر زكريا إبراهيم الذى عرفناه فى الفصل الأخير من سنة الليسانس حين عاد من بعثته فى فرنسا وجذبني وجذب الجميع بفكره المتألق ، وغزارة مادته وأسلوبه العربى المشرق ، وقد ظللت على صلة شخصية به بعد تخرجى أزوره فى منزله المتواضع فى مصر الجديدة حيث يقدم لى زوجته الفرنسية وابنته الصغيرة وحين كنت أناقشه في كتاب جديد صدر له ، أو أقدم له عرضا له نشرته فى إحدى المجلات الثقافية ، كان يبدى اغتباطا حقيقيا وبعد أن تباعدت الأماكن ظللت أتابع أعماله الفلسفية المتدفقة وكان حزنى عميقا عليه حين علمت فى أوائل السبعينات بموته المبكر وحيث فقدت الدراسات الفلسفية بموته عقلية متفوقة وعاشقا للفلسفة وكم تمنيت لو صدر كتابا تذكاريا عن أعماله ومساهماته الفلسفية ومن ناحيتى فقد ساهمت بعد سنوات طويلة بتقديم دراسة طويلة عن أعماله نشرتها جريدة «القاهرة» الثقافية.

ومثلما كانت المكتبة العامة للمدينة مصدرى الرئيسى للمعرفة والقراءة فى مرحلة دراستى الثانوية ، كانت مكتبة الجامعة كذلك فى المرحلة الجامعية ، وكان مما شجعنى على ذلك قدر التجاوب الذى كنت ألقاه من المسئولين والمشرفين عليها إذ كنت أقدم لهم قوائم بأسماء كتب جديدة عربية وأجنبية ، وكان مديرها الأستاذ أحمد عيسى ، وكان رجل مكتبات مرموق ، يأمر فورا بطلبها وشرائها للمكتبة .

وقد توافق بدأ دراستى الجامعية مع التطورات التى أتت بها ثورة ٢٣ يوليو ، وأن تتأثر وتتطور رؤياى وتكوينى الثقافى والفكرى بالتيارات والتفاعلات التى أطلقتها الثورة . فعل المستوى الثقافى اصطبغ التوجه العام للتيارات الثقافية باتجاهات الثورة وبدأت فى الظهور مجلات وسلاسل من الكتب الثقافية مثل الملحق الأدبى لجريدة الجمهورية وكان من كتّابه أبرز المفكرين المصريين من أمثال د. طه حسين ، د.لويس عوض ، ومجلة «التحرير» التى رأس تحريرها مثقف من الضباط الأحرار هو ثروت عكاشة ، ثم عادت مجلة «الرسالة» للظهور تحت اسم «الرسالة الجديدة» ورأس

تحريرها يوسف السباعى وهى المجلة التى نشرت ثلاثية نجيب محفوظ فى أول ظهورها فضلا عن تقديمها لجيل الكتّاب الذين سوف يحتلون الحياة الثقافية المصرية لحقب قادمة وسوف تظهر فى مرحلة لاحقة مجلة «الكاتب» التى سوف تعكس جيلا متقدما من الكتّاب والمفكرين وتيارات جديدة فى الفكر والثقافة ، كذلك أصدرت «روز اليوسف» كتابها الشهرى «الكتاب الذهبى» الذى يقدم الأعمال الأولى لنجيب محفوظ مثل «القاهرة الجديدة» وأعمال محمد عبدالحليم عبدالله ثم كتّاب جيل الخمسينات من أمثال يوسف أدريس الذى كانت مجموعته القصصية «أرخص ليالى» التى نشرها الكتاب مفتاحه إلى عالم القصة والرواية ، ثم يوسف الشارونى ، ومصطفى محمود الخ .. فى هذا السياق لابد من التوقف عند مجلة روز اليوسف والتى كانت وتحديدا حتى عام ١٩٥٧ أحد المصادر والحوافز لتكوينى وتكوين جيل كامل من المثقفين ، فكانت الفصول التى تنشرها لأسماء مثل أحمد بهاء الدين ، وفتحى غانم ، محمد عودة ، ومحمود أمين العالم، وعبدالعظيم أنيس وصلاح حافظ ومصطفى محمود ،

قبل تحوله الفكرى ، أساسا للبناء عليها ، وكانت مقالات أحمد بهاء الدين بوجه خاص عن السياسة الدولية هى التى فتحت لى اهتماما أوسع فى هذا المجال الجديد الذى سوف يتزايد تركيزى عليه . وقد ظللت أتابع كتاباته بعد ذلك سواء فى كتبه خاصة كتابه «رسائل نهرو إلى ابنته» ، « وشهر فى موسكو»، «إسرائيليات» ، ثم فصوله الأسبوعية عن السياسة العالمية منذ بدأ ينشرها فى جريدة أخبار اليوم تحت عنوان «هذه الدنيا» ونفس هذا ينطبق إلى حد كبير على كتابات محمد عودة ومقالاته ورسائله عن رموز العالم الثالث وشخصياته : نهرو ، وتيتو ، سوكارنو ونكروما وشووين لاى ثم كتابه الرائد عن «الصين الشعبية » والذى كان أول من فتح عيون المثقفين المصريين على الصين الجديدة وثورتها ، فى خلال هذا فتح كلا من د. عبدالعظيم أمين ومحمود أمين العالم بكتابهما «فى الثقافة المصرية» معركة طويلة وممتدة لم تكن فقط حول قضايا الفكر والثقافة وإنما كانت تمثل جدالا بين مدرستين سياسيتين ومواقف ، أوسع فى الفكر والسياسة .

كذلك كان من المنابر الثقافية المهمة التى ارتويت منها صدرو . مجلة «المجلة» لكى تكون «سجلا للثقافة الرفيعة» ولعل الأسماء التى تولت رئاسة تحريرها تعكس مضمون هذه المجلة ومستواها الرفيع أسماء مثل : د. حسين فوزى . على الراعى ، ويحيى حقى وظلت كذلك حتى عصفت بها التيارات السياسية ، وقد توازى مع هذا المستوى الثقافى الرفيع انشاء «البرنامج الثانى» بالإذاعة والذى كان بمثابة جامعة ثقافية على الهواء بما كان يقدمه من ثقافة عالمية ، ومصرية ، فى القصة والمسرحية والموسيقا وقضايا النقد الأدبى والفنى، وحيث كنت ، مع غيري نتحلق حول الراديو مساء كل جمعة كى نستمع إلى برنامج الموسيقى العالمية الذى كان يقدمه الدكتور حسين فوزى مع شرح وتعليق على الموسيقى الكلاسيكية فى أعمالها ومؤلفيها .

كانت التطورات السياسية التى أتت بها ثورة ٢٣ يوليو وتوجهات سياستها الخارجية منذ أن بدأت فى التفاعل مع القوى الخارجية خاصة الولايات المتحدة والعالم العربى أولا لإنهاء الوجود البريطانى فى البلاد وثانيا للبحث عن مصادر

لتمويل عمليات التنمية الاقتصادية ، ثم مواقفها المبدئية من سياسات الأحلاف والتكتلات وتأييدها لحركات التحرر الوطنى فى العالم العربى وأفريقيا وتلاقيها مع تياراته وزعماته فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وبدأ يتبلور مفهوم القومية العربية وصداه فى العالم العربى وبين شعوبه ، وأول معركة خارجية خاضتها الثورة وخرجت منها منتصرة - بتأميم قناة السويس والتى أنهت عصر الاستعمار القديم ثم توجهها نحو الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية فضلا عن اعترافها بالصين الشعبية ، وهو التطور الذى أدخل منطقة الشرق الأوسط بشكل حاسم فى الحرب الباردة والتنافس الشامل بين الشرق والغرب ، وكانت كل هذه التطورات التى تبلورت بشكل واضح فى النصف الثانى من الخمسينات ومع نهاية دراستى الجامعية كفيلة بأن تجذب اهتمامى بشكل أوسع إلى قضايا السياسية العالمية وأحداثها ونظرياتها ، وبدأت أبحث بشكل أعمق عن مصادرها فى الكتابات الصحفية الجادة مثل كتابات أحمد بهاء الدين ، ومحمد عودة، ومحمد محبوب (الذى كان يكتب صفحة أسبوعية فى

جريدة الجمهورية) والتى احترم تحليلاتهم التى تتسم بالعمق والبعد عن التناول الصحفى السريع ، غير أن قراءاتى بدأت تتجه إلى المصادر الأجنبية وكان أول من وجهنى لها الأستاذ محمود العالم فى لقاء عابر معه فى مجلة روز اليوسف حيث وجهنى إلى قراءة الدوريات السوفيتية: - New Times International Affairs ولأنها متاحة فى المركز الثقافى السوفييتى الذى كان يديره شخصية فنية وثقافية هو الأستاذ عزيز الشوان ، وفيه أيضا تعرفت على أعمال مترجمة للأدب السوفييتى وعلى الدورية السوفيتية soviet Litreature ، غير أن إطلاعى على الدوريات والصحافة الأجنبية قد تنوع بفضل شقيقى الذى كان بحكم عمله يحمل معه كل يوم أعدادا من جريدة التايمز ومجلة الإيكونوميست البريطانية .

وقد توافق مع مواقف مصر وأدوارها الدولية واتجاهاتها الجديدة ، بروز الحرب الباردة وتصاعدها ، وقد أصبحت مصر وأصبح الشرق الأوسط من عناصر هذه الحرب خاصة بعد توجه مصر للحصول على السلاح وعقد صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ وارتباط الاتحاد السوفييتى ببناء السد

العالى ، كما توافق مع هذا بروز الاتحاد السوفييتى على الساحة الدولية كأحد القطبين الرئيسيين بأيدولوجيته ونظامه الاجتماعى والاقتصادى الذى كان قد أصبح ذا جاذبية خاصة بالنسبة للدول الجديدة بما حققه من عمليات التنمية والبناء الاشتراكى وتقدمه العلمى والتكنولوچى الذى جعله أول من يطلق مركبة فضاء يقودها إنسان إلى القمر عام ١٩٥٧ وهو الحدث الذى بعث برسالة عن حيوية النظام ، كان كل هذا دافعا لى على أن أتابع واهتم بالتجربة السوفيتية ليس فقط فى أبعادها السياسية والدولية بل ، أيضا فى عقيدتها ومرتكزاتها الأيدولوچية ، كما وجه اهتمامى إلى الأدب الروسى وعمالقته تولوستوى ، دوستوفيسكى ، وتورجنيف ، وجوجول، وتشيكوف ويوشكين وكذا أعلام العصر السوفييتى مثل جوركى ، واهرنبرج ، وشولوخوف وباسترناك والذين بدأت تظهر لأعمالهم ترجمات مصرية أو عربية مثل ترجمة سامى الدروبى لأعمال دوستوفيسكى .

وهكذا توازنت اهتماماتى الثقافية والأدبية مع اهتماماتى بالثقافة السياسية والدولية وانعكس هذا فى أول خطواتى فى الكتابة والنشر فمن ناحية بدأت انشر مقالاتى فى الأدب والثقافة فى مجلة «الشهر» الذى بدأ يصدرها الأستاذ سعد الدين وهبه ومعه الناقد الواعد الأستاذ رجاء النقاش حيث كتبت عن الأدب السوفييتى ، والأديب الأمريكى چون شتاينباك وعن سلامة موسى ومصادره الفكرية ، كذلك نشرت فصولا فى الصفحة الأدبية لجريدة المساء والتى كأن يشرف عليها الأديب الأستاذ الراحل عبدالفتاح الجمل وفتح صفحته لجيل جديد من الكتّاب والأدباء الذين يشكلون بعد ذلك جيل الستينيات والسبعينيات ، أما اهتماماتى السياسية فقد عبرت عنها فى بضع مقالات نشرتها «صفحة الرأى» التى كان يشرف عليها الأستاذ لطفى الخولى بجريدة الأهرام ، كما أصدرت كتابا صغيرا فى سلسلة «كتب قومية» ، عن «الدول النامية ومنهج التخطيط» ، وكتابا آخر فى نفس السلسلة عن التحديات التى تواجه القومية العربية ، كما بدأت أكتب مقالا شهريا بانتظام فى مجلة «الهدف» التى كانت تصدرها إدارة

التعبئة ورأس تحريرها الأستاذ أحمد حمروش واستقطب فيها كتّابا بارزين ثم تولى تحريرها رجل فاضل هو الأستاذ مرزوق أحمد كان يعمل فى دار التحرير ورأس تحرير سلسلة «كتب للجميع» .

وقد تخلل هذا أيضا التحاقى بالخدمة العسكرية وهى الفترة التى التحقت فيها أيضا للدراسة فى معهد العلوم السياسية التابع لكلية الحقوق وكان قد بدأ يجذب الشخصيات المهتمة بالسياسة الدولية خاصة وإنه كان يمنح فى نهاية دراسته درجة الماجستير وحاضر فيه شخصيات مثل بطرس غالى ، وذكى شافعى ، ولبيب شقير وعائشة راتب، أما مدير المعهد الدكتور أحمد سويلم الغمرى فكان شخصية متميزة ذو ثقافة موسوعية ، وكانت قراءاته الواسعة تنعكس فى كتاباته فكان من يقرأ كتبه يلاحظ استرساله فى الأحداث لعدة صفحات لكى يعود مرة أخرى إلى موضوعه الأساسى وربما كان هذا لحرصه على أن يؤرخ لحدث أو فترة ما فى اطارها الفكرى الثقافى للعصر وشخصياته حتى الفنية والأدبية منها ، وقد ظل كتابه «تاريخ العلاقات

السـيـاسـيـة الدوليـة» أهـم مـرجع لطلاب ودارسى العلوم السياسية لسنوات طويلة .

كان التحاقى وتخرجى من معهد العلوم السياسية نقطة تحول في مستقبل وحياتى المهنية ، فقد شجعتنى الدراسة فيه وموضوعاتها عن العلاقات الدولية ، والاقتصادية ، والتنظيم الدولى ، والدبلوماسى والمنظمات الدولية على الالتحاق بوزارة الخارجية التى أعلنت فى أواخر عام ١٩٦٠ عن امتحان قبول لوظائف أو ملحقين دبلوماسيين ، وفى استعراض للإعلان والموضوعات التى سيجرى الامتحان فيها وجدتها هى نفس ما درسته وبشكل منهجى فى معهد العلوم السياسية فضلا عن قراءاتى ومتابعاتى السابقة فيها ، وهو ما جعلنى اجتاز الامتحان التحريرى الذى كان يعقبه مقابلة شخصية ومازالت الهيبة تتملكنى من الهالة التى كانت تحيط بأعضاء اللجنة ، وربما للجو الكلاسيكى الذى كان يحيط بما يعرف بالصالون رقم ٥ بمبنى الوزارة بميدان التحرير ، وكان يتوسط أعضاء اللجنة شخصية ذات ملامح صارمة تقترب من التجهم عرفت بعد ذلك أنه محمد حافظ إسماعيل الذى كان قد عين منذ

شهور وكيلا لوزارة الخارجية وكان ضابطا بالقوات المسلحة ومديرا لمكتب المشير عامر ويبدو أن شخصيته وخصائصه أثارت ضده «تيارات» عملت على إبعاده عن الجيش وسوف يكون هو الشخصية التى ستحتل مناصب بارزة فى الدبلوماسية المصرية والسياسة الخارجية المصرية ، ففضلا عن مناصب دبلوماسية بارزة فى الخارج ، عمل وزير دولة للشئون الخارجية ومديرا للمخابرات العامة، ومستشارا للأمن القومى فى فترة حاسمة شهدت مقدمات حرب ١٩٧٣ . ومادمنا قد قدمنا تاريخ هذا الرجل فقد كان من أبرز ملامحه أنه الذى أدار الاتفاق على صفقة الأسلحة التشيكية لمصر عام ١٩٥٥ والتى كانت نقطة تحول فى توجهات السياسة الخارجية المصرية على مدى الحقبتين التاليتين .

مضى قرابة العام منذ أن تقدمت للامتحان حتى إعلان النتيجة النهائية للقبول ، وهكذا التحقت بوزارة الخارجية عام ١٩٦١ وبذلك يكون قد مضى ٤ سنوات على تخرجى من الجامعة ، وسوف يبدو تأثير ذلك على مكانى فى السلم والكادر الدبلوماسى وحيث سيسبقنى فيه بمراحل زملاء

تخرجوا فى نفس العام معى فى الجامعة ولكنهم التحقوا بالخارجية مباشرة ، وكنت حين أشعر بهذا الفارق الكبير فى الترتيب الوظيفى أتساءل عما جعلنى انتظر هذه السنوات الأربع ولم أجد تفسيرا لذلك إلا تصورى أنه لابد أن أتهيأ للعمل بالشكل الكامل وهو الاعتقاد الذى تبلور خاصة مع تخرجي ودراستى فى معهد العلوم السياسية . وقد تسلمت عملى فى يونيو عام ١٩٦١ فى الإدارة المختصة بالأمم المتحدة ومنظماتها وتسمى «إدارة الهيئات الدولية» وكان مقرها بمبنى أبيض ملحقاً بالمبنى الرئيسى للوزارة بميدان التحرير فى الشهور الأولى فى هذه الإدارة كان من أعضائها ثلاثة مستشارين ، سوف يبرزون بعد ذلك ، هم إسماعيل فهمى ، وأشرف غربال ، والشافعى عبدالحميد ، وكانوا جميعا هم العناصر الفنية الذين يعتمد عليهم خاصة فى المؤتمرات الاقليمية والدولية غير أنهم ما لبثوا أن غادروا إلى مناصب خارجية خاصة فى الأمم المتحدة فى نيويورك ، ولطبيعة هذه الإدارة الفنية فلم يكن فيها أيا من العناصر العسكرية التى دخلت الوزارة مع عام ١٩٦٠، وقد تناوب على هذه الإدارة

خلال عملى فيها ثلاث مديرين : صالح عبدالرحمن محمود ، وأحمد المسيرى ، وأحمد فتحى رضوان ، وجميعهم ممن تدرجوا فى العمل بالوزارة ، كان الأول هو من أكثر ما جذبنى بشخصيته الوقورة وخاصة وسط الأزمات الاقليمية والدولية خلال هذه الفترة مثل أزمة الكونغو ، وأزمة كوبا وانفصال سوريا ورغم أن هذه الأزمات كانت تقع فى صميم عمل الإدارة باعتبار أنها كانت تناقش فى الأمم المتحدة وخاصة الكونغو وكوبا ، إلا أنه كان يتسم بالهدوء الذى قد يبدو للوهلة الأولى شيئا من عدم الاهتمام إلا أنه على العكس من ذلك فيما يعرض عليه من أوراق وتقارير وبرقيات فقد كانت ملاحظاته واضافاته تبدو كدعامات تجعل هذه الأوراق أكثر تماسكا ، وقد دهشت حين نقل إلى كمبوديا ، ثم إلى الأرجنتين وقد أسفت كثيرا حين جاءنى نبأ وفاته إثر أزمة قلبية قيل أنه كان وراءها الخلاف مع مستشار السفارة الذى كان عسكريا وكان التناقض واضحا بين شخصية وتكوين الاثنين ، أما أحمد المسيرى فكان يتسم بالهدوء والصوت الخفيض والدقة الشديدة ، وقد عين بعد ذلك سفيرا فى مالى

ثم فى النرويج التى سوف أخلفه فيها بعد ذلك بثلاثين عاما .
أما الشخصية الثالثة فهو أحمد فتحى رضوان ولم يكن له خلفية عمل فى الأمم المتحدة ولكنه تولى الإدارة فى فترة قصيرة لسفر مديرها لحضور جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وقد كان يتمتع بالذكاء واللماحية الشديدة ، وكان حقله الرئيسى هو الشئون العربية ولذلك عين بعد ذلك سفيرا فى تونس، ورغم الفترة القصيرة التى عملت معه فيها إلا أننى اقتربت منه كثيرا ، وكنت العضو الوحيد فى الإدارة الذى بعد انصراف الجميع ، يبقى معه لمراجعة واستعراض عمل اليوم أو لإعداد شئ يريد أن يعرضه على وكيل الوزارة حافظ إسماعيل .

وفى العامين اللذين أمضيتهما فى ديوان الوزارة كان ثمة شخصيتين يحوم ظلهما على الوزارة وأعضائها كبارا وصغارا : حسين ذو الفقار صبرى ، الذى كان نائبا لوزير الخارجية ، وحافظ اسماعيل وكيل الوزارة . كان الأول مستغرقا تماما فى إدارة العمل السياسى للوزارة وبعثاتها

فى الخارج ، وكان الإنسان يستطيع أن يرى ما يتصف به من حدة من واقع تأشيراته الموجهة إلى مديرى الإدارات والسفراء فى الخارج ، ولا أذكر أن رأيته والتقيت به خلال عملى بالديوان ، ولم أره إلا عندما جاء فى زيارة لبراج عام ١٩٦٤ ، وظلت هذه الصورة منطبعة فى ذهنى عنه وكان مبعث دهشتى حين أصدر كتابا بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، وبعد أن كان قد اعتزل العمل وصدر تحت عنوان «يا نفس لاتراعى» ، قدمه له يحيى حقى ، وكان أشبه بمجموعة تأملات حزينة وعميقة فى الهزيمة والشئون المصرية ، وكان كل من قرأ الكتاب يتوقف عند إحكام لغته وعمق أفكاره ، ويخلص إلى أن هذا كاتب متمرس بالكتابة وأن هذا لم يكن كتابه الأول وربما الوحيد .

أما حافظ اسماعيل فقد كان ، بالاضافة إلى معالجته أيضا للشئون السياسية واشرافه المباشر على الإدارات ، هو الذى بث النظام والالتزام فى العمل اليومى وكان هو صاحب ما صدر عن «تنظيم وزارة الخارجية» ، الذى وصل إلى درجة صياغة الشكل الذى تصدر به المذكرات أو التقارير أما

الشخصية التى كانت تسمع ولا ترى فكانت شخصية محمود فوزى وزير الخارجية والذى لم يكن له أى دور فى العمل داخل الوزارة ، ولم يحدث لى أو للأغلبية العظمى من أعضاء الوزارة أن رأوه ، والتقوا به إلا من خلال الدقائق القليلة التى استغرقها أداء اليمين عقب الالتحاق بالوزارة، ولم يكن أحدا يشعر به إلا من خلال محاضر مقابلاته مع السفراء والشخصيات الأجنبية الزائرة ، وحيث كان محضر المقابلة يتمثل فى معظمه فيما تحدث به هؤلاء واستفساراتهم عن مواقف مصر من بعض القضايا وكانت العبارة الوحيدة التى تصدر عنه هو قوله «بأنى قد أفدته بما يلزم» .

□□□

كان من التقاليد التى أرساها «التنظيم الجديد لوزارة الخارجية» أن تصدر حركة التنقلات السنوية للدبلوماسيين فى الأول من إبريل كل عام ، وقد ظل هذا التقليد معمولا به فيما اعتقد حتى الآن ، وفى أول إبريل ١٩٦٣ صدرت الحركة متضمنة نقلى إلى سفارتنا فى «تشيكوسلوفاكيا» . كانت هذه

البعثة ، فى حينها ، وأكثر من ذلك فيما بعد ، ذات معانى كثيرة ، بالنسبة لى . فتشيكوسلوفاكيا هى إحدى الدول الرئيسية فى المعسكر الاشتراكى الذى أصبحت مصر ترتبط به بعلاقات وثيقة ومتعددة الوجوه ، وكانت صفقة الأسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ علامة من علامات التحول فى هذه العلاقة ، كما كان النظام فيها أكثر النظم الاشتراكية ارتباطا والتزاما ، بالاتحاد السوفيتى ومن ثم فإن العمل فيها سيقدم فرصة لمواصلة الاهتمام الذى بدأته بشئون الاتحاد السوفيتى ودوره الدولى وأيدلوجيته وأدبه وثقافته ، وسوف تثبت الأيام أن هذه البعثة ستحدد إلى حد كبير إتجاه عملى الدبلوماسى والكثير من البعثات التى سأعمل فيها وبالتوازى مع هذا باهتماماتى ودراستى الأكاديمية ، كذلك آثار نقلى إلى براج صور وانطباعات عامة تشكلت من خلال قراءات عامة عن شخصياتها ، كانت تشيكوسلوفاكيا قد نشأت فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وظلت الديمقراطية الحقيقية الوحيدة فى أوروبا الوسطى خلال فترة الحربين العالميتين تمتلك أحزابا سياسية تتنافس سلميا واقتصاد سليم كما كانت منذ

الإعلان عن نشأتها عام ١٩١٨ تتمتع بزعيم حكيم هو توماس مازاريك وكان مثقفا ولد لحوزى سلوفاكى وأم موراڤية وكان ذا قناعات إنسانية ودينية قوية . وأصبحت تشيكوسلوفاكيا تحت قيادته مكانا مزدهراً تمتلك صحافة حرة وتعليما عاما ممتازا وحياة ثقافية مزدهرة ، وكان ذو إيمان عميق بالديمقراطية وبأن البلدان الصغيرة يحق لها أن تتمتع بنفس حقوق البلدان الأكبر . كما يذكر مازاريك بابنه أدوارد مازاريك ، وزير الخارجية قبل الانقلاب الشيوعى عام ١٩٤٨ والذى آثار انتحاره الغامض الكثير من التكهنات، كما كانت البلد التى عرفت بتقاليدها الصناعية وكانت سيارات سكودا رمزا على ذلك هذا فضلا عن تقاليدها الثقافية حيث برز أمامى بوجه خاص اسماء مؤلفيها الموسيقيين البارزين سميتنا ودوڤوجاك.

بهذه الانطباعات سافرت إلى براج فى أغسطس عام ١٩٦٣ وكانت المرة الأولى التى أسافر فيها إلى الخارج . كان السفير عندئذ - محمد كامل الرحمانى - رجلا عسكريا له تاريخ فى الجيش حيث عرف عنه معارضته للإنجليز ، كما

كان من أساتذة عبدالناصر فى الكلية الحربية ، وعقب الثورة عين مديرا للإذاعة لفترة قصيرة ثم أحيل للتقاعد ولكنه واصل دراسته حتى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة . وفى الحفل الذى كان يحضره عبدالناصر لتسليم شهادات التخرج للحاصلين على شهادات علمية عالية التقى به وبعدها أصدر قرارا بتعيينه سفيرا فى وزارة الخارجية ، وقد ظل يمد فى خدمته سنوات بعد بلوغه سن المعاش ثم عينه بعد عودته للقاهرة ، عضوا فى مجلس إدارة أحد البنوك ، وكان الرجل شديد الثقة بنفسه ويعتبر العديد من الشخصيات من تلاميذه كما كان يعتقد ، وهكذا أبلغه أحد مساعدى عبدالناصر ، أن الرئيس ينتظر برقياته وتقاريره ولذلك كان يكتب فى كل شئ ويرسل برقيات مطولة عن موضوعات يتصور أنها تشغل إهتمام عبدالناصر فى هذا الوقت مثل الزراعة الجماعية ، والتصنيع ، والتنظيم الحزبى ، والاتحادات الثقافية ودور العمل فيها ، كانت السفارة المصرية فى هذا الوقت كبيرة الحجم بما يعكس حجم العلاقات بين البلدين وتصور أهمية تشيكوسلوفاكيا بالنسبة لمصر، فعلاوة على عدد غير قليل من

دبلوماسى وزارة الخارجية من مختلف الدرجات كانت هناك تقريبا جميع أنواع التمثيل الفنى : العسكرى ، والتجارى ، والثقافى ، والعمالى (باعتبار أن براج كانت مقرا للاتحاد العالمى للعمال الذى كان يضم التنظيمات العمالية فى الدول الاشتراكية) . وباعتبارى كنت أصغر أعضاء السفارة درجة فقد توليت شئون الشفرة ، والأمن ، وهى أمور كانت - خاصة الشفرة - تتصل بشكل مباشر بالسفير الأمر الذى قربنى منه بشكل كبير ضاعف منه مالاحظه من اهتمامى كذلك بالكتابة السياسية فى الشئون الداخلية والخارجية .

والواقع أن وجودى فى الخارج قد فتح لى نافذة متابعة الصحافة العالمية فقد اشتركت فى أبرزها وكذلك العديد من المجلات والدوريات وخاصة التى كانت تعالج شئون الاتحاد السوفيتى والمعسكر الاشتراكى وقضاياه الداخلية والدولية ، الأمر الذى عمق اهتمامى ومتابعتى لشئون هذه المنطقة وعلاقاتها وقضايا الحرب الباردة بين المعسكرين وأصبحت براج هى ثقب الباب الذى أطل منه على التطورات السوفيتية ومواقفه الدولية .

كانت السنوات التى قضيتها فى براج ١٩٦٣ - ١٩٦٦ هى فى الواقع سنوات تفاعل فى التيارات والقوى فى الحياة السياسية التشيكية والتى انتهت فى الواقع بما سمى «بربيع براج» الذى ازدهر مع عام ١٩٦٨ وأنهى النظام القديم ورموزه الموالية للاتحاد السوفيتى وأراد أن يبنى فيما عبر الزعيم الجديد «الكسندر دوبتشيك» مجتمعا «تستعيد فيه الاشتراكية وجهها الإنسانى» ، وهو التطور الذى اعتبره الاتحاد السوفيتى ودول حلف وارسو فى رسالة وجهوها إلى القيادة الجديدة فى براج أن التطورات التى تجرى فى تشيكوسلوفاكيا هى فى نظر الحلف تهديد لمكانة الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ولدوره فى قيادة المجتمع ومن ثم فهى تهديد لكيان النظام الاشتراكى ذاته ، وانه للترابط العضوى القائم بين تشيكوسلوفاكيا ونظامها الاشتراكى وبقية نظم العائلة الاشتراكية فإن هذه التطورات لم تعد تشكل أمرا يخص تشيكوسلوفاكيا وحدها ولا حزبها وحده ولكنها تخص كافة الأقطار الاشتراكية مجتمعة (وقد شكل هذا المفهوم الأخير ما أصبح يعرف «بمبدأ برچنيف» الذى

يعتبر أن أى تطور فى دولة من دول حلف وارسو إنما يخص بقية أعضائه ومن ثم من حق الحلف التدخل لتصحيحه) ، وقد انتهى هذا التحليل السوفيتى للموقف فى تشيكوسلوفاكيا إلى الغزو السوفيتى فى ٢١ أغسطس ١٩٦٨ بما أتى به من تفاعلات إقليمية ودولية وانتهى بالإطاحة بحكومة الكسندر دويتشنيك واقامة حكومة يرضى عنها الاتحاد السوفيتى .

وفى ضوء ما حدث للاتحاد السوفييتى من تفكك ، لايملك المرء اليوم إلا أن يتساءل ماذا كان سيحدث للتاريخ لو كان القادة السوفيت قد تسامحوا مع تجربة « ربيع براج» التى كانت تستهدف اقامة اشتراكية ذات وجه إنسانى وتطوير التطبيق الاشتراكى وتفادى أخطائه وبناء مجتمعات أكثر انفتاحا؟ وسمحوا بامتداد هذه التجربة إلى النظم الاشتراكية الأخرى بما فيها النظام السوفيتى ذاته ؟ ربما لم يكن الأمر يتطلب ظهور زعيم سوفيتى مثل جورباتشوف يجيء بإجراءات متسرعة وجذرية لم يتحملها البناء الداخلى السوفيتى ويؤدى إلى تفككه .

والواقع أن المتابعة الدقيقة للحياة السياسية الداخلية فى تشيكوسلوفاكيا تنبئ أن عام ١٩٦٣ يستمد دلالته الكبيرة باعتباره عام مؤتمرات الكتَّاب والصحفيين سواء السلوفاكى أو التشيك أو اتحاداتهم العامة ، وقد ارتبط هذا العام بتدهور الحالة الاقتصادية فى البلاد وبإعلان فشل الخطة الخمسية ٦١ - ١٩٦٥ والتخلى عنها ، وفى ظل هذه الظروف انعقد مؤتمر الكتَّاب السلوفاكى وانتقد فيه رئيس الوزراء وليم شيروكى ، واتهمت حكومته بالابطاء فى تصفية الستالينية وعبادة الشخصية .

وكان من نتيجة هذا المؤتمر أن أقيلت حكومة شيروكى ونسب إليها تدهور الأحوال الاقتصادية والفشل فى تطبيق الخطة، والواقع أن أمر إقالة حكومة شيروكى لم تكن تمسه شخصيا بقدر ما كانت تراجعا للنظام كله فى وجه القوى الجديدة التى كانت تتعامل مع انفجار المشكلتين المزمنتين فى حياة المجتمع - وربما فى حياة مجتمعات أوروبا الشرقية - وهما مشكلتى الاقتصاد ومشكلة الحرية . وتستحق المشكلة الأخيرة مزيدا من التوقف لأن مشكلة الحرية والديمقراطية

هى مشكلة الكتَّاب والمثقفين التشيكوسلوفاك على اختلاف اهتماماتهم وكانت عندهم تكتسب أبعادا أوسع من مجرد اهتماماتهم الثقافية أو بحريات تتعلق بحرية التعبير أو التفتح على أفكار وثقافات العالم ولكنها تتجاوزها إلى مشكلات المجتمع وقضاياه السياسية والاقتصادية والايديولوجية ، فحركة الكتَّاب التشيكوسلوفاك هى فى الواقع حركة سياسية تتخذ من قضايا الثقافة والفكر طريقا إلى تناول مشكلات مجتمعاتها لذلك كان دراسة حركة الكتَّاب هى دراسة لاتجاهات تمس صميم الهيكل السياسى والاقتصادى والأيديولوجى للبلاد .

وقد كان مجال الثقافة والأدب والفكر عموما من أهم الميادين التى عنى الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى عند توليه السلطة أن يطبق فيها مفهومه لدور الثقافة فى المجتمع الاشتراكى ، وإذا كان زادانوف فى الاتحاد السوفيتى لم يعترف فى مجال الأدب والفن سوى بمذهب الواقعية الاشتراكية أسلوبا للتعبير الأدبى والفنى واعتبر كافة أشكال التعبير الأخرى أشكالا برجوازية كما أخضع كافة أجهزة

الأدب والثقافة والفنون لاشراف الحزب وتوجيهاته كذلك كان نفس أسلوبه الحزبى فى تشيكوسلوفاكيا تجاه مشكلات الثقافة والأدب .

وقد كان الكتَّاب هم أولى القطاعات التى ظهرت فى صفوفها اتجاهات ليبرالية استجابة لرياح التغيير التى بدأت تهب من الخارج والداخل وظهرت هذه الاتجاهات بوضوح فى مؤتمرات الكتَّاب منذ عام ١٩٥٣ التى تبلورت فى مؤتمر عام ١٩٦٣ الذى أشرنا إليه . وقد اتخذ الكتَّاب من مجلاتهم التى تصدر عن اتحاداتهم منابر للتعبير عن الاتجاهات الجديدة فكانت مجلة Litrani Noving هى مجلة اتحاد الكتَّاب التشيك ، ومجلة Litrani Listy وهى مجلة اتحاد الكتَّاب السلوفاكى ، هى أكثر المنابر تعبيرا عن هذه الاتجاهات وتجميعا لكافة الأقلام التى شنت أعنف الحملات على سياسات الحزب ومواقفه :

أ - ففى النواحى الاقتصادية انتقد الكتَّاب الاقتصاديين أسلوب المركزية وعبادة الخطة وطالبوا بانتهاج اللامركزية والاستفادة من النموذج اليوغوسلافى ، وبعد الإعلان عن

النظام الجديد لتوجيه الاقتصاد أعربت أقلام كثيرة عن تشككها فى نجاحه إذا لم يرتبط بتغيير فى المناخ السياسى العام وتغيرت نظرة الحزب إلى دوره ومكانته فى المجتمع .

٢ - وفى الجوانب الأيديولوجية هاجم الكتَّاب الجمود فى فهم وتفسير الماركسية وطالبوا برؤيتها فى ضوء التكوين والتطور الحضارى لمجتمعهم وقال أحدهم «هل نستمر فى عبادة ما خلفه لنا أجدادنا أم نتطلع إلى أشكال جديدة تلائم عصرنا ؟»

٣ - كما تعرض الكتَّاب الاجتماعيون لنظام قصر التعليم على الفئات ذات الأصول البرولتيارية وحرمان ذوى الأصول البرجوازية منها .

أما الدعوة المشتركة فكانت فى رفع الرقابة على الصحف والمجلات وأدوات الإعلام الأخرى ، وقد هزت هذه الاتجاهات المراكز التقليدية فى الحزب واعتبرتها محاولات لإضعاف سلطته فى كافة المجالات ومن ثم إلى تفتيت السلطة الاشتراكية والعودة بالبلاد إلى الأشكال الرأسمالية . وقد ارتبط بهذه المواجهة حركة صحوة وتجديد فى الأدوات

الإعلامية في البلاد انعكست على الحياة الثقافية ، بحيث جعلت من براج مركزا جذابا لكافة أقطار المعسكر الاشتراكى إلى الحد الذى أعلن فيه النظام فى ألمانيا الشرقية تخوفه من امتداد عدواها إلى مجتمعه . فقد بدأت أجهزة التليفزيون تعرض برامج عن فرنسا والنمسا وتعرض معها نماذج الحياة الغربية وأساليبها ذات الجاذبية الشديدة لدى المجتمع التشيكى خاصة الشباب فيه . وملأت المسارح التى كانت عروضها قاصرة على روايات جوركى وتشيكوف وابسن تعرض روايات سارتر وآرثر ميللر وانيسكو وصمويل بيكيت ودورنيمات فضلا عن بروز وجوه مسرحية تشيكية كان من أبرزها فاتسلاف هافيل والذى سيقود عملية التجديد ، كما عرضت دور السينما أفلاما من كافة بلدان الغرب ، وفى مجال الأدب أعيد تقييم الكاتب التشيكى الأصل فرانز كافكا الذى كان أدبه مصادرا باعتباره أدبا برجوازيا يشيع العبث واللامعنى ورفض الحياة وهى جميعا لا تتفق مع المثل الاشتراكية وعقد مؤتمرا فى براج لإعادة تقييم أعماله حيث نظر إليه فى ضوء جديد كما أقيم معرضا لكتبه ومخطوطاته

ومراسلاته . غير أن حركة الكتّاب فى تشيكوسلوفاكيا يجب أن لا تمر دون أن نلاحظ أن العناصر ذات الأصول والانتماءات الصهيونية قد اتخذت من حركة الكتّاب ودعواتهم المخلصة بتجديد جوانب الحياة فى مجتمعهم ، اتخذوا منها أداة لتحقيق أهداف تخدم فى الدرجة الأولى مصالح صهيونية بهدف تحويل مواقف البلدان الاشتراكية عن تأييد الحقوق العربية .

□□□

عدت إلى القاهرة فى أغسطس عام ١٩٦٦ لكى أجد فى انتظارى عملا لم تعرفه من قبل وزارة الخارجية ، فقد قيل لى أنى قد ألحقت بالعمل فيما يسمى «معهد الدراسات الدبلوماسية» ، ليكون مركزا لتدريب الدبلوماسيين الجدد الذين سيلحقون كملحقين بالوزارة . ولم يكن لهذا المعهد مقر سوى حجرة بمبنى وزارة الخارجية بالتحرير ، وهى الحجرة التى سوف يشغلها فيما بعد د. بطرس غالى لسنوات طويلة كوزير دولة للشئون الخارجية ، ومن هذه الحجرة ظللنا نعمل قرابة ثلاث شهور للإعداد لبرنامج الدراسة التى كانت

ستستمر لمدة عامين ، وقد استعنا في هذا الإعداد بعدد كبير من أساتذة الجامعات ، وبالفعل افتتح المعهد رسميا في أكتوبر من نفس العام وبدأ العمل ضمن مبنى متواضع وفرته أكاديمية ناصر العسكرية العليا واستمر العمل فيه قرابة ثلاثة سنوات حيث انتقل إلى مبنى مجاور لمبنى الوزارة بالتحرير .

خلال هذه السنوات عاصرت دفعتين من الملحقين ، أصبح بعضهم مساعدين لوزير الخارجية مثل نهاد عبداللطيف ومشيرة خطاب ، ونعمان جلال وآخرون ، كما التحق بهيئة المعهد أسماء مثل د. سمير أحمد ، صلاح بسيوني ، حسين أحمد أمين كما حاضر فيه عدد كبير من أساتذة الجامعات في التخصصات المختلفة وكذا دبلوماسيون كبار بوزارة الخارجية وعدد من الكتّاب والمفكرين وخاصة في فروع الثقافة . وفي عام ١٩٦٨ التحق بهيئة المعهد مستشار أنهى بعثته العلمية في الولايات المتحدة وهو د. أسامة الباز والذي سيظل في المعهد حتى عام ١٩٧٣ ، حين سيختاره وزير الخارجية اسماعيل فهمي لكي يعمل في مكتبه ،

وبشخصيته البسيطة اقترب منه الدارسين كثيرا وبنوا معه علاقات طيبة .

كذلك فى هذا العام ، ١٩٦٨، انضم إلى دفعة الدارسين ٧ ملحقين جاءوا مباشرة من منظمة الشباب وكان من بينهم د. مصطفى الفقى . كانت الدراسة فى المعهد لمدة عامين يتخللها امتحانات دورية وكان اليوم الدراسى يمتد إلى المساء. الأمر الذى كان يشكل ضغطا وضيقا لدى الدارسين ولكنهم سيشعرون فى المستقبل أن المعهد والدراسة فيه كان جزءا هاما من تكوينهم وإعدادهم للعمل الدبلوماسى .

سوف تثبت الأيام أن عملى بالمعهد الدبلوماسى سيكون حاسما فى توجيه مستقبلى سواء من حيث البعثات التى سأعمل بها أو من حيث اهتماماتى العلمية والأكاديمية . فقد كان من الطبيعى وأنا أعمل فى معهد دراسى أن أواصل اهتماماتى خاصة بمتابعة الشئون السوفيتية وقضايا وعلاقات بلدان الكتلة الاشتراكية ، وهو الاهتمام الذى ظهر فى سلسلة الدراسات التى تولت أجهزة أكاديمية ناصر مشكورة بطباعتها وكنت ألقيها وأناقشها على الدارسين

فى المعهد ، وكان أهم هذه الدراسات تلك التى كتبتها عن «الأزمة التشيكوسلوفاكية عام ١٩٦٨» حللت فيها أصول هذه الأزمة وكيف نظر الاتحاد السوفييتى ودول حلف وارسو إلى التطورات فى براج ودوافع الغزو السوفييتى وردود الأفعال الدولية لهذا الغزو .فى هذا السياق أذكر أنه بعد سنوات طويلة علمت من أحد السفراء المصريين المقربين للرئاسة أن السفير مجدى حسنين سفير مصر آنذاك فى تشيكوسلوفاكيا حين تلقى الدراسة وخلال اجازة له فى القاهرة ، ومقابلته للرئيس عبدالناصر اشتكى له من تناول وزارة الخارجية للأزمة التشيكية وبأنها تعريض بالاتحاد السوفيتى وضرب مثلا بالدراسة التى أعددتها ولكن عبدالناصر لم يهتم بانتقاده وربما نهره .

وكان المعهد يبعث بالدراسات التى أعدها إلى بعثاتنا فى موسكو ودول أوروبا الشرقية حيث يبدو أنها لفتت نظر السفير يحيى عبدالقادر السفير فى بلجراد والذى فى زيارة له للقاهرة طلبنى لمقابلته وذكر لى أنه قرأ ما كتبت وأنه يشعر أننى مهيأ للعمل فى منطقة شرق أوروبا وعرض علىَّ أن

يطلب من الوزارة نقلى للعمل معه فى بلجراد وهو ما رحبت به . لم أكن قد رأيته من قبل ولكنى أعلم ثناء الجميع عليه وكان فارع القامة دسم الصوت يوحى بالثقة نحوه لأول وهلة وهى الانطباعات التى تأكدت بعد العمل معه واكتشفت فيه أكثر من هذا النظرة العميقة والتقدير الحكيم للأحداث والشخصيات . وبالفعل عرض السفير الأمر على وزير الخارجية محمود رياض وحمل له معى دراساتى عن المنطقة مشيرا إلى أنى «سأكون جاهزا للعمل فى اليوم التالى لوصولى» وهو ما اقتنع به الوزير . ولما كان من التقاليد المعمول بها فى الوزارة أن لا ينتقل العضو إلى بلد فى نفس المنطقة التى كان يعمل فيها فقد وجه الوزير باصدار تفسير لسبب نقلى إلى بلجراد بعد براج .

وكانت العلاقات المصرية اليوغوسلافية تتميز بالخصوصية التى اكتسبتها من العلاقات الشخصية التى تطورت بين كلا من تيتو وعبدالناصر . وقد ساعد على بناء هذه العلاقة أن كلا منهما وجد نفسهَ فى الآخر ، فمثلما رفض تيتو أن يكون وتكون يوغوسلافيا مجرد عضو فى المعسكر الاشتراكى

بقيادة الاتحاد السوفيتى وستالين يتبنى ويطبق مفاهيمه عن الاشتراكية والتطور الاشتراكى فى الداخل ويحدد علاقاته بالعالم ضمن الرؤية السوفيتية ، انشق تيتو على هذا وأراد أن يكون له اختياراته الخاصة الداخلية والخارجية واستقلاليته ، لذلك كان أول الشقوق فى جدار المعسكر الاشتراكى وأول من تجرأ على تحدى إرادة الدولة الأم فى المعسكر وزعيمها . كذلك اختار عبدالناصر هذا النهج فى استقلال الارادة الوطنية وأدى إلى تصادم مباشر مع القوى الغربية ذات المصالح التقليدية فى مصر والمنطقة ، هذه السياسات الاستقلالية لدى تيتو وعبدالناصر هى التى دفعتهما إلى أن يبحثا على نطاق أوسع لحركتهما السياسية والدولية وكذلك إلى نظرية سياسية تضفى مفهوما فلسفيا وعمليا على هذه الحركة ، وقد وجدا هذا فى فلسفة أو نظرية عدم الانحياز وتوسيع نطاقها لكى تشمل دول العالم الثالث والتى توافقت هذه الدعوة مع بحثها هى الأخرى عن إطار يجمعها ويمنحها الثقة فى طريقها ، وقد تحقق هذا بتأسيس ما أصبح يعرف بحركة عدم الانحياز والتى اكتسبت زخما

ليس فقط بتنامى تيار الاستقلال الوطنى فى دول العالم الثالث ، بل ببروز شخصيات مؤثرة لها جاذبيتها الوطنية مثل نهرو ، وسيهانوك ، وسوكارنو فى آسيا ، ونكروما وسيكوتورى وموديبوكيتا فى أفريقيا وكاسترو فى بداياته الأولى فى أمريكا اللاتينية . لذلك كانت مكانة مصر واضحة فى يوغوسلافيا الأمر الذى انعكس على تمثيلها الدبلوماسى من حيث مستواه وقيمته وقنوات الاتصال المتاحة له فى الدوائر اليوغوسلافية وهو ما لمسته بوضوح عندما بدأت عملى فرغم درجتى الصغيرة نسبيا - سكرتير أول - فقد كان مستوى من أقابلهم سواء فى وزارة الخارجية أو رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف عاليا وأشهد - بعد خبرتى فى العمل فى الدول الاشتراكية الثلاث : براج ، بلجراد وموسكو ، أن الدبلوماسيين والمسئولين اليوغوسلاف كانوا أكثرهم انفتاحا وتعاونا وكانوا عند حدوث أى حدث إقليمى أو دولى يقدمون تحليلاتهم ومعلوماتهم الدقيقة وأذكر نموذجا على ذلك أنه حين قام ريتشارد نيكسون بزيارته التاريخية للصين عام ١٩٧١ فإن ما قدموه لى من تقييم وتحليل لهذا الحدث

ومعانيه وتأثيراته الدولية وهو فى بدايته أثبتت الأيام نفاذه وبصيرته .

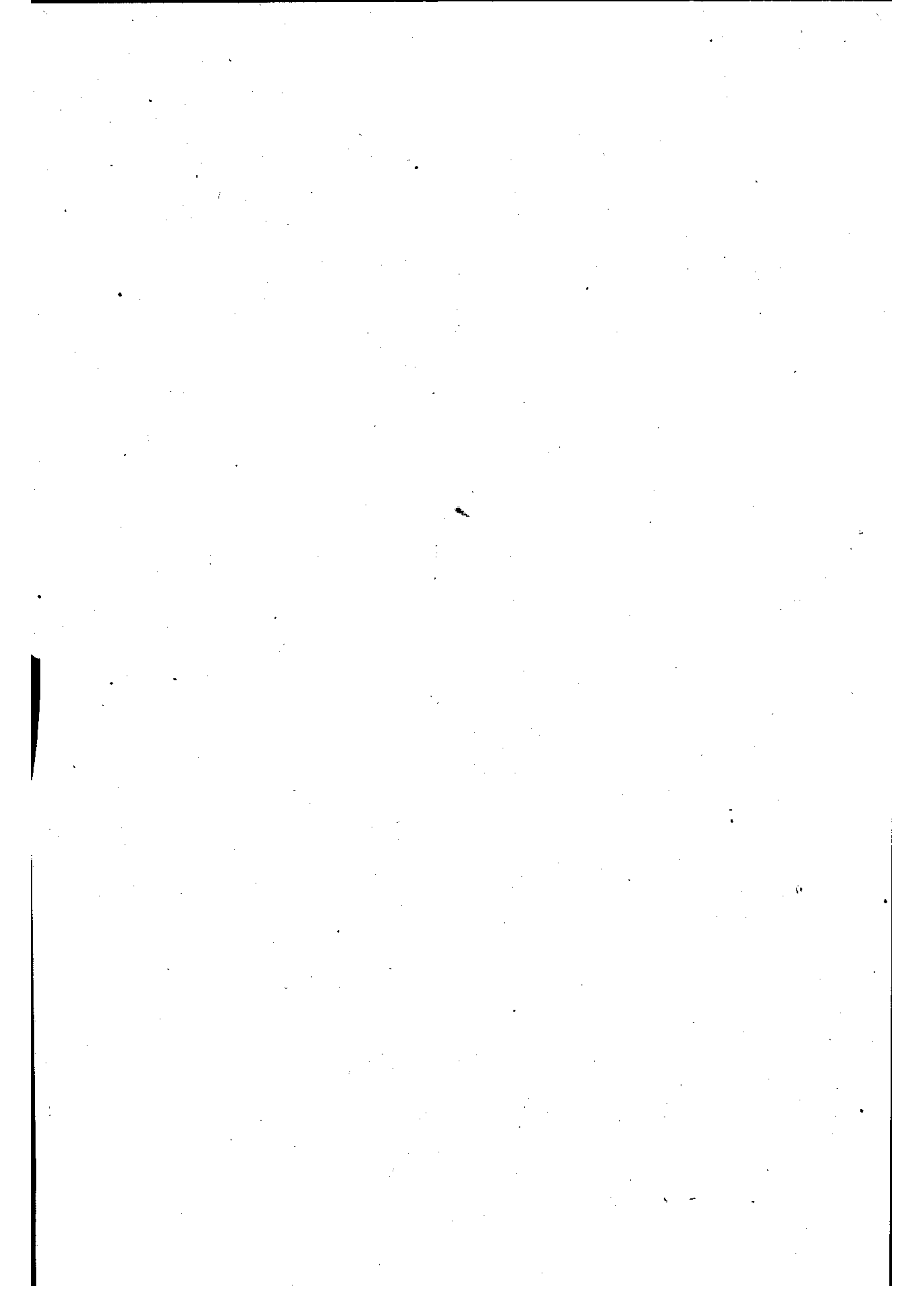
ومن القضايا التى كانت موضع تساؤل ونقاش كثيرا فى هذه المرحلة هى مستقبل الاتحاد اليوغوسلافى بعد رحيل تيتو، واعترف أنى كنت أعتقد أن جمهوريات يوغوسلافيا الستة سوف تفضل أن تبقى متحدة وأن مزايا هذه الوحدة وايجابياتها سوف تسود ، وقوى هذا النظر التطور الذى بدأ تيتو ادخاله على الحياة السياسية بإنشائه ما يعرف بمجلس الرئاسة Preseduim تتناوب على رئاسته الجمهوريات الستة كلا لمدة عام بما يشعرها بذاتها ومشاركتها فى الحكم. غير أن الأحداث أثبتت أن الرواسب التاريخية والاختلافات العرقية كانت من العمق بحيث هى التى سادت على التفكير العقلانى فضلا على الدور الذى لعبته الشخصيات فى تزكية هذه النزعات العرقية الانفصالية من أمثال ميلوسوفيتش وكاچتيش .

وبعد شهور من وصولى إلى بلجراد ، وفى سبتمبر ١٩٧٠ وقع الحدث الحزين برحيل عبد الناصر ، وقد لمست عمق المشاعر التى كان يحملها له اليوغوسلاف على المستوى

الشعبى حيث علقت صوره فى الأماكن العامة محاطة بعلامات الحداد ، وعلى المستوى الرسمى تدفق الرسميون اليوغوسلاف على السفارة لتقديم العزاء وفى مقدمتهم تيتو الذى جاء مبكرا فى الصباح وقد توافق ذلك مع غيبة السفير فى القاهرة حيث استقبلته مع الوزير حسن عباس ذكى الذى توافق وجوده فى بلجراد فى هذا الوقت .

□□□

فى نهايات عام ١٩٧١ نقل السفير يحيى عبد القادر إلى منصب فى القاهرة رئيسا لاتحاد الإذاعة والتليفزيون – الذى استمر فيه لشهور قليلة نقل بعدها سفيرا لمصر فى موسكو خلفا للدكتور مراد غالب الذى كان قد عين وزيرا للخارجية ، وخلال ذلك جاء السفير يحيى عبد القادر إلى بلجراد حاملا رسالة من السادات إلى تيتو ، وعند عودته إلى القاهرة وتوديعه فى المطار طلب منى أن أصاحبه إلى الطائرة حيث عرض علىَّ أن يطلب من الوزارة نقلى للعمل معه فى موسكو وهو ما رحبت به وشكرته عليه ، واستجاب له الدكتور مراد غالب وزير الخارجية آنذاك .



الفصل الأول

موسكو وعصر التفاوض

وصلت موسكو بعد عدة أسابيع من إعلان الرئيس الراحل أنور السادات عن إبعاد المستشارين السوفيت في يوليو ١٩٧٢ ، وهو القرار الذى كان له أصداء محلية حيث فاجأ أقرب المستشارين إليه ، كما كان له وقع إقليمى وخاصة لدى الدول المحافظة التى لم تكن ترتاح إلى النظام والإيدلوجية السوفيتية ومن ثم إلى وجوده فى المنطقة فضلا عن رد فعل الولايات المتحدة التى كان من أهدافها الاستراتيجية إخراج السوفيت من المنطقة وعبر هنرى كيسنجر عن ذلك بقوله : أنه لو كان السادات قد أبلغهم بهذا القرار لكان قد استطاع أن يحصل على مقابل كبير له . ونستطيع أن نتصور كيف تلقى السوفيت هذه الخطوة حيث كانت صفعة لهم ولمكانتهم فى المنطقة ودول العالم الثالث . غير أنه مما لفت النظر أن هذا التقييم لم ينعكس بالغضب أو بابداء ما يهدد العلاقات المصرية السوفيتية ، ومن ناحيته سارع السادات إدراكا منه باستمرار حاجته إلى المساعدات العسكرية السوفيتية وفى وقت بدأ يدرك فيه أنه مقبل على معركة عسكرية ، سارع بالعمل على احتواء هذا التطور وتطمين السوفيت أنه لن يؤثر

على جوهر العلاقة معهم وبدا هذا فى ارسال وفد كبير برئاسة رئيس الوزراء حينذاك د. عزيز صدقى الذى كانت تربطه علاقات طيبة مع السوفيت منذ أن كان وزيرا للصناعة فى عهد عبد الناصر ومسئوليته عن برنامج التصنيع الذى كان يعتمد على الاتحاد السوفيتى . ويبدو أن القادة السوفيت قد استوعبوا هذه الخطوة حرصا منهم على علاقتهم مع مصر ووضعهم فى المنطقة ، كما واصلت الوفود المصرية وعلى مستويات كبيرة الوصول إلي العاصمة السوفيتية سواء على المستوى العسكرى بزيارة وزير الحربية أحمد اسماعيل فى مارس ١٩٧٣ بتقديم احتياجات مصر العسكرية . وقتها سئل رئيس الوزراء كوسيجين عما إذا كان الاتحاد السوفيتى قد استأنف تزويد مصر بالسلاح فرد قائلا : أن الاتحاد السوفيتى يعتقد أن لمصر الحق فى امتلاك جيش قوى من أجل الدفاع عن نفسها ضد العدوان وتحرير أراضيها . كما كانت من الزيارات الهامة زيارة حافظة اسماعيل فى فبراير ويونيو ١٩٧٣ وهى الزيارة التى صدر فيها إعلان السوفيت أن لمصر الحق فى تحرير أراضيها بكل الوسائل الممكنة ،

واعتبر هذا تطورا فى الموقف السوفيتى بعد أن كان معروفا تحفظهم على اللجوء للحرب . كما أعقبت زيارة حافظ اسماعيل زيارة وزير الخارجية محمد حسن الزيات فى مايو ١٩٧٣ ، كذلك توازى مع هذه الزيارات الرسمية عالية المستوى زيارات على المستويات الشعبية فى وفود ممثلة لمجلس الشعب والاتحادات الزراعية ، ورغم مظهر الصداقة التى كانت هذه الوفود تحملها إلا أن العديد من أعضائها لم يكونوا يخفون كراهيتهم للنظام السوفيتى ، وفى مرافقتى لهم كنت أحاول إقناعهم أن لا ينعكس هذا فى سلوكهم وتعليقاتهم خلال هذه الزيارات وفى لقاءاتهم خاصة من الشخصيات الحزبية والتى كانت هى الأخرى لا تخفى ضيقها ببعض ما ينشر فى الصحافة المصرية حول الاتحاد السوفيتى من تعليقات سلبية .

غير أنه إذا كان وصولى إلى موسكو قد توافق مع هذا الحدث فى العلاقات المصرية السوفيتية - أعنى إبعاد المستشارين السوفيت - إلا أنه قد توافق كذلك مع بدايات تحول فى العلاقات السوفيتية الأمريكية وبداية مرحلة جديدة ،

سوف تتطور وتعرف بمرحلة الوفاق Detente بين القوتين العظمتين وتنقل علاقاتهما من حقب الصراع والمواجهة إلى مرحلة الحوار والتفاوض وبشكل خاص حول أعقد جوانب علاقاتهماوهى الأسلحة الاستراتيجية ، ذلك أنــه مع نهاية الستينات كانت خبرة أزمة الصــواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ ، والتى كادت أن تشعــل مواجهـــة نـــووية ، كانت هذه الخبرة قـد بدأت تتـبلور فى إدراك حـاجـتـهـمـا إلى إعــادة ترتيب عـلاقـاتهـمـا وعـدم تكرار هـــذه التجـربة وترشـــيد الجـانب الخطير فى هذه العلاقات المتصل بالأسلحة الاستراتيحية ، وهــذا الادراك هو الذى دفعهما إلى التوصل إلى اتفاقـيتين هامتين الأولى هى إتفاقـيـة الحظر الجزئى للتجارب النووية Partial Agreement on Nuclear Tests مـعــاهدة حظر الانتــشــار النووى Non Proliferation Treary عـام ١٩٦٨ . غـيـر أن أخطر تطور حـدث على المســتـوى الســوفـيـتى وكـان له صــداه فى التـفكيـر الاســتـراتيـجى الأمـريكــى كـان هو توصل الســوفيت إلى مـرحــلة التـعـادل Parity مع الولايات المتحدة فى مـجــال الصــواريخ عـابرة

القـــارات Imter continental missiles وهـو التطـور الذى كـان من أبرز أهـداف قـيادة برچنيف - كـوسـيـجين - وبودجورنى، التى حلت محل زعامة خورشوف عام ١٩٦٤ .

غير أنه مع هذا الانجاز الاستراتيجيى فقد كان معروفا أن السياسة السوفيتية بوجه خاص كانت تحكمها فى النهاية الاعـتـبـارات الداخليـة وخطوط تطورها وفى هذه الخطوة واجهت القيادة السوفيتية عددا من التحفظات فيما يتعلق بالاتجاهات الداخلية والتى لم تكن تتفق مع القوة الصاعدة للاتحاد السوفيتى فى الشئون العالمية فى السبعينات ، ففى الوقت الذى استطاعت فيـه قطاعـات الانتـاج والدفـاع والتكنولوچيا العسكرية أن تنافس الولايات المتحدة والغرب فقد أصبح واضحا بشكل متزايد ، وكما اعترفت السلطات السوفيتية، أن الاتحاد السوفيتى إنما يواجه عددا من الصعاب فى ملاءمة القطاعات المدنية للثورة الصناعية والعلمية للعصر الحديث .

وكان قد بات واضحا أن الاصلاحات الاقتصادية التى أدخلت عام ١٩٦٥ لزيادة الإنتاجية وانتاج التكنولوچيا

الجديدة فى القطاع المدنى لم تحل الصعاب الاقتصادية السوفيتية ولذلك ظهر ما يبدو شبه إجماع داخل القيادة السوفيتية نفسها . أن الفشل فى مواجهة المشكلات الاقتصادية للاتحاد السوفيتى قد يترتب عليه نتائج غير مرغوب فيها سواء فى الداخل أو المنافسة الطويلة الأجل مع الغرب .

وقد توافق مع هذا التطور فى القوى الاستراتيجية السوفيتية من ناحية ومن إدراك الصعاب الاقتصادية للاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى ، مجيىء إدارة جديدة فى الولايات المتحدة فى مايو عام ١٩٦٩ برئاسة ريتشارد نيكسون والرجل الذى اختاره ليكون مستشارا للأمن القومى هنرى كيسنجر والذى سيصبح منظر سياسته الخارجية وصاحب تكتيكاتها وتوجهاتها العامة والذى سيبنى سياسته الدولية على أساس من خبرته الأكاديمية التى كانت تقوم حول مفهوم «توازن القوى» Balamce of power وفى التقرير الذى ألقاه نيكسون عن «حالة الاتحاد» فى فبراير عام ١٩٧٠ ويحمل عنوانا دالا « ..استرتيجية جديدة نحو السلام» ، وحيث

اعتبر فى مقدمة هذا التقرير «إن كل اطار السياسة الدولية ربما يتغير» ولذلك فإن التحدى الذى تواجهه أمريكا هو أن تتفهم هذا التحدى وأن تحرك السياسات التى تحقق هذا ضمن تناول جديد للسياسة الخارجية ولكى تجارى «عهدا جديدا فى العلاقات الدولية» وحدد نيكسون الهدف العام لهذه السياسة بأنه «تقديم اطار السلام الدائم» وبداية ما أسماه «عصر التفاوض» .

وهكذا جاء وصولى إلى موسكو - أغسطس ١٩٧٢ - مع بدايات عصر التفاوض هذا وبعد أيام قليلة من انعقاد مؤتمر القمة الأمريكى السوفيتى الأول والذى سيفتتح ما سيعرف بعصر مؤتمرات القمة Summeteries ، وعند هبوطى فى المدينة - موسكو- كان واضحا أنها قد شهدت حدثا كبير ، وأن محاولات قد جرت بتجميلها لاستقبال ضيف كبير ، ومن الناحية الموضوعية كنت وأنا مازلت فى بلجراد أتابع الإعداد للقمة المقبلة فى موسكو وكانت بطبيعة الحال تشغل اهتمام ومتابعة الدوائر اليوغوسلافية ، وفى هذه المتابعة توقفت عند وصف الرئيس الأمريكى لرحلته المقبلة إلى موسكو

واجتماعه مع القادة السوفيت بأن القائمة الطويلة من مؤتمرات القمة بين الشرق والغرب سوف تبدو باهتة بالمقارنة برحلته المقبلة إلى الاتحاد السوفيتي وقوله أنه كان هناك دائما ما أطلق عليه «روح ڤينا» ، وفى إشارة إلى لقاء كيندى وخرشوف عام ١٩٦٠ ، «وروح كامب دافيد» ، فى إشارة لزيارة خروتشوف للولايات المتحدة، «وروح جلاسبورو» ، إشارة إلى لقاء الرئيس الأمريكى چونسون مع رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين عام ١٩٦٧ ، إلا أن ما أضافته هذه المؤتمرات كان شيئا صغيرا باحتوائه على الكثير من المظاهر وقليل من الجوهر .

□□□

كان من الطبيعى أن أجد السفارة المصرية فى موسكو بكل أعضائها مشغولة برصد وتتبع وتقييم نتائج مؤتمر القمة السوفيتى الامريكى الذى انعقد منذ أيام ، فالمؤتمر حدث هام ونقطة تحول فى علاقات أكبر قوتين فى العالم وحيث ترتبط مصر معهما بعلاقات غاية فى الدقة والحساسية للمصالح المصرية ، وإحداها ، وهو الاتحاد السوفيتى تعتمد مصر عليه

دبلوماسيا وعسكريا فى استرداد أراضيها ، ولذلك فإن أى تطور فى علاقات هاتين القوتين لابد أن يكون فى مركز اهتمامات مصر وبعثتها الدبلوماسية . وقد صدقت نبوءة ريتشارد نيكسون من حيث حجم وطبيعة ما أسفرت عنه القمة فقد توصلت إلى نطاق عريض من الاتفاقيات والتعاقدات التى تصل بعلاقات القوتين الثنائية والدولية وارتباطاتهما الإقليمية فضلا عن توصلهما إلى مبادىء يلجأون إليها فى إدارة هذه العلاقات ومواجهات إلى ما يطرأ من تطورات دولية . ويصل حجم هذه الاتفاقيات فى تفاصيلها وشمولها إلى مجلدات وخاصة تلك التى تتعلق بالحد من التسلح وخاصة الأسلحة النووية والاستراتيجية ، ويكفى فى حدود هذا الكتاب أن نورد هذه الاتفاقات فى عناوينها الكبرى حيث كان من أبرزها :

١ – الاتفاق بينهما فى الاهتمام بالحد من الأسلحة الاستراتيجية :

أ – اتفاقية الحد من نظم الصواريخ المضادة .

Treaty on lemitation of Anti Ballestic missile Agreememt

ب - الاتفاقية المؤقتة للحد من الأسلحة الهجومية .

Interim limitatation offensive weapons

جـ - إعلان المبادىء الأمريكية :

Statement of Basic Primceples of U.S Sovier - American Relations

٣- مجموعة اتفاقيات شملت عددا من وجوه العلاقات الاقتصادية والتجارية والتعاون العلمى والفنى والثقافى..

وكان أكثر ما لفت نظر المحللين لنتائج القمة هو بيان إعلان المبادىء التى سوف تسترشد به القوتان فى إدارة علاقاتهما الدولية والاحتكام إليها فى توجيه سلوكهما الدولى وبشكل خاص الفقرة الثانية التى ترسى هدفا عاما وأساسيا وهو «منع تطور المواقف التى من شأنها أن تسبب التوتر الخطير لعلاقاتهما » ، ولهذا فإنه من أجل تفادى هذه المواقف فإن الدولتان سوف تعملان على ما يلى :

أ - تفادى المواجهات العسكرية ومنع اشتعال الحرب النووية .

ب - أن يمارسا باستمرار ضبط النفس فى علاقاتهما المتبادلة والتفاوض لتسوية خلافاتهما بالوسائل السلمية وبروح تبادلية .

غير أنه مع الاهتمام بتحليل هذه الاتفاقيات ودلالاتها على مجمل مستقبل العلاقات بين القوتين ، إلا أن التركيز كان منصبا على الجزء الخاص بالشرق الأوسط الذى صدر ضمن البيان المشترك عن الزيارة والتى أثار فى القاهرة جدلا كان له أصداء كبيرة وفهم وفسر بمعنى معين. فى هذا البيان ، وفيما يتعلق بقضية الشرق الأوسط ، لم يتوصل الطرفان إلى اتفاق حول أساليب حل الأزمة واكتفيا بإعادة تأكيد تأييدهم لتسوية سلمية فى الشرق الأوسط وفقا لقرار مجلس الأمن ٢٤٢ .. كما عبرا عن تأييدهما لجهود ممثل الأمم المتحدة جونار يارنج واستعدادهم للقيام بدور مهم فى تحقيق هذه التسوية واعتبرا أن تحققها سوف يفتح امكانيات تطبيع الموقف فى الشرق الأوسط وسوف يفتح بوجه خاص النظر

فى خطوات أكثر فى إجراء استرخاء عسكرى ، -Military
. Relaxation

وفى القاهرة أخذ هذا الجزء الخاص بالشرق الأوسط باعتباره دليلا على عدم مقدرة القوتين على تحقيق تسوية سلمية للمشكلة ، ونستطيع أن نقول أن هذه المعالجة لأزمة الشرق الأوسط من قبل القوتين قد ساهمت فى القرار المصرى باللجوء للحرب ، ففى رواية أنور السادات للتطورات التى حملته على القيام بحرب أكتوبر قال : «أنه بعد زيارة نيكسون للإتحاد السوفيتى فى عام ١٩٧٢ وصدور أول بيان وفاقى بين موسكو وواشنطن يقول بالاسترخاء العسكرى .. وكان صدمة عنيفة لنا .. ثم جاء فى التحليل السوفيتى بعد اللقاء مع نيكسون وكان التحليل السوفيتى يوضح أنه لم يحدث أى تقدم بالنسبة لقضية الشرق الأوسط مع أمريكا .. (أنور السادات: « البحث عن الذات» المكتب المصرى الحديث ١٩٧٨ ص ٣١١ - ٣١٢) .

ويقول هنرى كيسنجر فى تفسيره للنهج الذى اتبعته الولايات المتحدة فى صياغة الجزء الخاص بالشرق الأوسط

فى بيان القمة بأنهم عملوا على أن يصدر البيان فيما يتعلق بالشرق الأوسط «على أكثر الصور اعتدالا» اذ أن ذلك من شأنه أن يقنع القادة العرب – على الأقل المعتدلين منهم – بأن السوفيت غير قادرين على تحقيق تسوية ، وأن خلق هذا الموقف هو ما كانت تعمل له الولايات المتحدة منذ ثلاث سنوات : (Kissimger , 'The white House years) (pp. 1247 - 1253 - 1494).

كذلك تضمنت رواية كيسنجر أن كلا من جروميكو وكيسنجر اتفقا على «مبادىء عامة» ، لم تعلن وقتها ، تكون أساسا للتسوية فى الشرق الأوسط :

١ – أن التوسية النهائية يجب أن تكون شاملة تغطى كل الأطراف والمشاكل وهذا لا يمنع أن يحدث التطبيق على مراحل وأن تحل بعض المشكلات على أساس من الأولوية .

٢ – يجب أن تتضمن التسوية مواد تنص على انسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة عام ١٩٦٧ .

٣ – أن أى تعديلات فى الحدود قد تجرى يجب أن تنشأ عن اتفاق إرادى بين الأطراف المعنية .

٤ - يمكن أن تتضمن اتفاقيات متبادلة حول الأمن مناطق منزوعة السلاح والشرطة المؤقتة لأفراد من الأمم المتحدة فى شرم الشيخ وضمان وفعالية الضمانات الدولية بالاشتراك المناسب من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة .

٥ - يجب أن تؤدى الاتفاقية إلى إنهاء حالة الحرب وإقامة السلام .

٦ - يجب تأكيد حرية الملاحة فى مضايق تيران وقناة السويس بما يتفق بشكل كامل مع السيادة المصرية على مقتضاه .

٧ - الاعتراف باستقلال وسيادة كل فى دولة الشرق الأوسط بما فيها اسرائيل واحد من المبادىء الرئيسية التى يجب أن تقوم عليها التسوية .

وقد ظل الجدل بين القاهرة وموسكو منصبا بالذات حول عبارة «الاسترخاء العسكرى» وفهمتها القاهرة بأنه اتفاق بين موسكو وواشنطن على الحد من شحنات الأسلحة للشرق الأوسط . وفى وقت كانت القاهرة تتوقع مزيدا من التعاقدات العسكرية السوفيتية لمصر فى نظم متقدمة ، أما التفسير

السوفيتى فكان يصر على أن هذه العبارة فى البيان جاءت مشروطة بتحقيق تسوية سلمية للمشكلة وأن مثل هذا الاسترخاء العسكرى إنما يتم فقط بعد التوصل إلى حل للأزمة .

□□□

وأيا كان الجدل الذى كان بين القاهرة وموسكو حول ما ورد فى البيان المشترك للقمة حول الشرق الأوسط ، إلا أن ما كان واضحا أن اجتماع القمة قد أشاع مناخا من التفاؤل الزائد حول ما تحقق خلاله وأثره على مستقبل علاقات القوتين ، على أنه بانقضاء حالة النشوة التى صاحبت انعقاد المؤتمر وتلته مباشرة بالتأمل بشكل أعمق حول المعنى فى العملية لما تمر وصول من اتفاقيات ومبادىء - وعلى الرغم من اتفاق الجميع فى الرأى على أن هذه الاتفاقيات وما صاحب مؤتمر القمة من تصورات حول مستقبل علاقات القوتين كانت انفصالا عن لغة ومفاهيم الحرب الباردة ، إلا أنه مع هذا كان ثمة اتفاقا موازيا آخر قد نشأ يعتبر أن ما تحقق فى قمة موسكو لا يمكن اعتباره انجازا نهائيا أو أنه

يمكن الركون إليه فى حد ذاته لضمان السير فى عملية الوفاق في الوثيقة الأساسية التى صدرت عن المؤتمر وهى إعلان المبادىء لم تكن - كما وصفها الرئيس الامريكى بوصلة أو خريطة الطريق ، وأن قيمتها الحقيقية سوف تتأكد عندما تلتزم بها القوتان في إدارة ما ينشأ من أزمات دولية . كما أن اتفاقيتى السولت رغم شجاعتها فى الشروع فى تحديد الأسلحة الاستراتيجية إلا أنها جاءت محدودة فى طبيعتها حيث اقتصرت على الجانب الكمى من هذه الأسلحة وكذلك مداها الزمنى من حيث سريانها لمدة خمس سنوات .

أما الاتفاقيات الثنائية والمجالات التى تفتحها فى العلاقات الاقتصادية والتجارية والعلمية فإنها تظل مرهونة بوضعها موضوع التنفيذ بل وعلى تغلبها على ما قد يلقاه التصديق النهائى عليها من معارضات داخلية كما هو الحال مع اتفاقية التجارة .

من هنا كانت الحاجة إلى خطوة جديدة تدعم استمرار التحول الذى بدأه مؤتمر القمة فى موسكو نحو تطبيع العلاقات وهى الخطوة التى تمثلت فى زيارة ليونيد برچنيف

لواشنطن فى ١٧ يوليـو عـام ١٩٧٣ وهى الزيارة التى نتج عنها عددا من الاتفاقيات توازى فى أهميتها ما تحقق فى قمة موسكو أو هى على الأصح مواصلة لما بدأ فى هذه القمة - على أنه وبعد أقل من ثلاث شهور من اجتماع القمة فى واشنطن سوف يتعرض الوفاق الأمريكى السوفيتى لاختبار خطير تمثل فى اشتعال حرب أكتوبر فى الشرق الأوسط .

فمع خريف عام ١٩٧٣ بدأ المسرح الدولى باعثا على التطلع إلى فرص جديدة وخاصة بعد اتفاقية إنهاء الحرب فى فيتنام، ورغم أن الوفاق كان مازال هشا إلا أن ميزان الحرارة الدولى لم يكن ينذر بأى عاصفة ، وكان كل شىء يبشر بمزيد من التطبيع فى علاقات القوتين حيث وجدا نفسيهما فجأة فى مواجهة أزمة كبيرة تهدد كل ما أنجز فى الأعوام الأخيرة .

وقد حركت حرب أكتوبر فى الشرق الأوسط وتطوراتها وإدارة القوتين فيها نقاشا حادا حول مزايا الوفاق الحقيقية وآثار الدور السوفيتى فيها جدلا واسعا فى الولايات المتحدة حول حدود وقوة الوفاق السوفيتى الأمريكى ومدى التزام الجانب السوفيتى خلال الأزمة بالمبادىء التى اتفقت عليها

القـوتين لإدارة مـثل هذه الأزمـات بما يتـفق وروح وأهداف الوفاق وإلى حـد كبير فإن كلا من مؤيدى ومنتقدى الوفاق أصـبحـوا ينظرون إلى حرب أكتوبر كحالة اختبار خطير للوفاق ، ومثلما كان الحال مع مؤتمر القمة الأول فى موسكو من عدم التوصل إلى حل لأزمة الشرق الأوسط كذلك كان مع مؤتمر القمـة الثانى حيث اكتفى الجانبان بالتعبير «عن اهتمامهما العميق بالموقف فى الشرق الأوسط وتبادلا وجهات النظر فيمـا يتـعلق بطرق التوصل إلى تسـوية ، كمـا وافق الجانبـان على الاستمرار فى مواصلة جهودهما للتوصل إلى تسـوية بأسـرع مـا يمكن فى الشـرق الأوسط ، وقـد تكون هذه التسوية متفقة مع مصالح كل دول المنطقة ومع استقلالها وسـيـادتهـا ويجب أن تأخـذ فى الاعـتـبـار الواجب المصـالح المشروعة للشعب الفلسطينى» .

وفى الوقت الذى كـان مـسلمـا به بوجـه عـام أن النزاع العربى الاسرائيلى الطويل قد اتجـه إلى تقليل الاختبارات القائمة أمام الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وبعد أن استقطبت مواقفـهمـا فى تأييد حلفائهم المتنازعين ، إلا أن

التطور فى المنطقة منذ عام ١٩٧٠ لم يبدو أنه متعارض مع المصالح الأمريكية والسوفيتية ومن ثم قيام وفاق فعال بينهما . وفى الدوائر الأمريكية نشأت عدد من الافتراضات حول السلوك السوفيتى فى الشرق الأوسط مثل حرب أكتوبر تضمنت الأتى :

١ - أنه مع بقاء المشكلات التى لم تحل بعد فى العلاقات الأمريكية السوفيتية مثل الحد من التسلح ، والأمن الأوروبى ، والحد من الأسلحة الاستراتيجية ، فإن الاتحاد السوفيتى لايستطيع السماح بقيام أزمة فى الشرق الأوسط تعرض للخطر إمكان التوصل إلى نتائج إيجابية حول هذه القضايا ومن ثم الوفاق فى مجموعه .

٢ - أن الاتحاد السوفيتى على وعى كامل بالمصالح الأمريكية وحساسية أمريكا للتطورات فى المنطقة، ولهذا تيقن السوفيت من الخطورة المتزايدة لمواجهة أمريكية سوفيتية.

٣- لم يكن لدى الاتحاد السوفيتى ثقة كبيرة فى قدرة العرب على شن حرب ناجحة ضد إسرائيل، وكانت

المساعدة العسكرية السوفيتية هى العامل الأول لدعم قدراتهم الدفاعية.

فى ضوء هذه التصورات المسبقة عن الموقف السوفيتى، فإن اشتعال حرب «أكتوبر والارتباط السوفيتى الظاهر فيها قد أدهش الولايات المتحدة وقد اعترف كيسنجر فى مؤتمره الصحفى فى ١٢ أكتوبر بأنه كان هناك ميل للمطابقة مع المفاهيم المسبقة وجعلها متماسكة مع ما هو متوقع.. فإذا ما بدأت من افتراض أن الحرب غير محتملة فسوف ينشأ اتجاه إلي جعل الحقائق القائمة ملائمة لنظرياتك المتصورة سلفا».

وأذكر أنه فى يوم ٨ أكتوبر قابلت فى مكتبه يوچينى بريماكوف، وكان وقتها يشغل منصب نائب مدير معهد العلاقات الدولية، وذكرنى بأن الاتحاد السوفيتى قد قبل الرواية المصرية عن كيف بدأت الحرب وأنهم يلمسون تفهما على مستوى الشعب السوفيتى لحق العرب فى تحرير أراضيهم، ولكنه حذر «من تحولات على أرض المعركة» وبالفعل عندما اشتعلت الحرب ظهر أول رد فعل رسمى سوفيتى يوم الأحد ٧ أكتوبر فى بيان يناقش من الذى بدأ

الحرب التى اشتعلت «نتيجة لغياب التسوية السياسية» وبعد ٥ سنوات فإن إسرائيل التى تستمتع بتأييد الدوائر الامبريالية قد زادت بشكل دائم من التوتر فى الشرق الأوسط. أن المسئولية فى التطور الأخير للأحداث فى الشرق الأوسط تقع كلية وبشكل كامل على إسرائيل وعلى الدوائر الخارجية الرجعية التى تشجعها بصفة دائمة فى تطلعاتها العدوانية».

وقد بدأ الارتباط السوفيتى السياسى والعسكرى بحرب الشرق الأوسط فى اتجاه تأييد العرب برسالة بعث بها برجنيف إلى الرئيس الجزائرى بومدين تقول فيها: أننى اعتقد أنك توافق على أن النضال الذى يشن الآن ضد المعتدى الإسرائيلى لتحرير الأرض العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ وحماية الحقوق المشروعة لشعب فلسطين إنما يؤثر فى المصالح الحيوية لكل الشعوب العربية ومن وجهة نظرنا فإنه يجب أن يكون هناك تضامن عربي وثيق اليوم أكثر من أى وقت مضى، إن سوريا ومصر يجب أن لا يظلا وحدهما فى النضال ضد العدو الخائن. إن الحاجة ماسة لتقديم التأييد

على أوسع نطاق للنظم التقدمية فى هذه الأقطار والتى هى مثل الجزائر العمود الفقرى للحرية والتقدم فى العالم العربى»...

وكان برجنيف قد أكد تأييد السوفييت للعرب فى خطاب له فى ٧ أكتوبر أمام رئيس الوزراء اليابانى «إن ما يجرى الآن فى الشرق الأوسط هو معركة بين إسرائيل المعتدية ومصر وسوريا ، ضحايا العدوان اللتان تجاهدان لتحرير أراضيهما ومن الطبيعى أن تكون كل عواطفنا إلى جانب ضحايا العدوان» كما عبر رئيس الوزراء كوسيجين خلال حفل لرئيس وزراء الدانمرك فى ١٥ أكتوبر فى نفس الموقف فقال : إن التضامن مع شعوب مصر وسوريا والشعوب العربية الأخرى المدافعة عن حقوقها الشرعية ومصالحها ضد المعتدى الإسرائيلى والاهتمام باقامة سلام عادل، كل هذا يشكل جوهر موقفنا فى الشرق الأوسط.. إن أعمالنا هناك تستهدف مساعدة الشعوب العربية على تحرير أراضيها التى تحتلها إسرائيل.. وعلى هدى هذا فسوف نستمر فى تدعيم التضامن مع الشعوب العربية فى نضالها العادل».

وعلى المستوى العسكرى خلال الحرب أقام الاتحاد السوفيتى جسرا جويا وبحريا لتزويد مصر وسوريا بالسلاح وذلك بالجسر الجوى الذى بدأ يوم ٩ أكتوبر، أما الجسر البحرى والذي يبدو أنه بدأ قبل اشتعال الحرب فقد تزايد خلال القتال بمعدات ثقيلة بدأت تصل سوريا بالبحر فى ١٠ أكتوبر ورغم عرض الولايات المتحدة الامتناع عن تزويد إسرائيل بالسلاح إذا ما فعل الاتحاد السوفيتى نفس الشئ، فقد قوبل هذا العرض بالتجاهل من الاتحاد السوفيتى، ومن ناحية أخرى أخذت نظم الأسلحة التى بعث بها الاتحاد السوفيتى إلى مصر وسوريا خلال الحرب مستوى أكثر تقدما بتقديم عدد لم يحدد من صواريخ سكود لمصر والذى كان نظامها يسمح بضرب تل أبيب من الأرض المصرية وقد يفسر هذا تهديد السادات فى ١٦ أكتوبر أن مصر تملك صواريخ قادرة على الضرب فى عمق إسرائيل.

غير أن السوفيت بعد أن تجاهلوا النداءات الأمريكية فى الخمسة عشر الأول للحرب وحين أدركوا جدية التحذير الأمريكى وخشي تحول العمليات العسكرية، فإن القادة

السوفيت بدأوا يفكرون فى العمل السياسى والدبلوماسى، وبشكل خاص فى استخدام المبادئ التى كان تم الاتفاق عليها فى قمة موسكو، والتى كانت تنص على اللجوء للتشاور والتعاون لمنع الأزمات الدولية من التفاقم والتأثير على علاقاتهما.

فى هذا الشأن أذكر أن جونار يارنج سفير السويد فى موسكو ، والذى كان مبعوث الأمم المتحدة للسلام فى الشرق الأوسط عقب حرب ١٩٦٧، جاء لزيارة السفير المصرى يحيى عبدالقادر وكان مما ركز عليه توقعه أن تلجأ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لإستخدام اتفاق إعلان المبادئ للتعامل مع الأزمة. وفى اليوم التالى ١٦ أكتوبر بدأت التحركات السوفيتية فى هذا الاتجاه حين وصل رئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين إلى القاهرة حيث أمضى ثلاثة أيام ومن ناحية أخرى دعا برجنيف هنرى كيسنجر لزيارة موسكو يوم ٢٠ أكتوبر حيث توصل الجانبان إلي مشروع قرار قدم إلى مجلس الأمن فى ٢٢ أكتوبر يدعو إلى الوقف العاجل لإطلاق النار وتنفيذ قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لعام ١٩٦٧. وقد قبل

طرفا النزاع القرار الذى أدى إلى وقف اطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر، غير أن إسرائيل ما لبثت أن خرقت وقف اطلاق النار الأمر الذى أدى إلى أن تتقدم القوتين بمشروع قرار مشترك آخر يدعو إلى الانسحاب إلى مواقع ٢٢ أكتوبر وهو القرار الذى رفضت إسرائيل أن تستجيب إليه. الأمر الذى دفع مصر إلى التقدم بنداء إلى كل من الحكومتين السوفيتية والأمريكية لإرسال قوة مشتركة إلى الشرق الأوسط للإشراف على تنفيذ قرار مجلس الأمن للانسحاب إلى خطوط ٢٢ أكتوبر، وقد أشار برجنيف، فى خطاب لم ينشر إلى نيكسون، وفى لهجة قوية أن الولايات المتحدة عليها أما أن تقبل هذا الاقتراح أو أن الاتحاد السوفيتى يتصرف بمفرده بإرسال قواته إلى الشرق الأوسط، وقد أجاب كيسنجر، بأن الولايات المتحدة «لاتحبذ ولن توافق على إرسال قوات امريكية سوفيتية مشتركة إلى الشرق الأوسط فإنه من غير المتصور أن نزرع خلافات القوتين العظمتين والشرق الأوسط أو أن نفرض سيطرة سوفيتية أمريكية مشتركة ، إن الولايات المتحدة تعارض أى إدخال انفرادى لقوات عسكرية فى الشرق

الأوسط وخاصة من قوة نووية بأى شكل وتحت أى ستار» .
وقد توافق مع هذا ما رصدته الولايات المتحدة من تحركات عسكرية سوفيتية واضحة قامت بها القيادة السوفيتية العليا والتى تركت الانطباع لدى الأمريكيين عن احتمال إقدام السوفييت على إقامة جسر جوى لارسال قوات محاربة إلى الشرق الأوسط وأدى هذا إلى أن يعلن وزير الدفاع الأمريكى شلزنجر فى ٢٥ أكتوبر حالة التأهب العالمى Def Com Three للقوات العسكرية الأمريكية. وقد جاء رد الفعل السوفيتى إزاء إعلان حالة التأهب الأمريكى فى بيان أذاعته وكالة تاس يوم ٢٨ أكتوبر قالت فيه «اتصالا بالأحداث فى الشرق الأوسط ظهرت فى وشنطون تقارير تؤكد حالة تأهب للقوات المسلحة الأمريكية فى بعض المناطق بما فيها أوروبا، وفى محاولة لتبرير هذه الخطوة أشار الرسميون لبعض أعمال الاتحاد السوفيتى التى أدعوا أنها سببت القلق. أن تاس مخولة لأن تعلن أن مثل هذه الايضاحات سخيفة طالما أن أفعال الاتحاد السوفيتى تهدف فقط إلى تطبيق قرار مجلس الأمن حول وقف إطلاق النار وإعادة السلام فى

الشرق الأوسط. أن هذه الخطوة من جانب الولايات المتحدة التى لا تخدم بأى حال الوفاق الدولى قد اتخذت بشكل واضح لإخافة الاتحاد السوفيتى، ولكن هؤلاء الذين وراء هذه الخطوة يجب أن يقال لهم أنهم اختاروا العنوان الخاطئ». وكانت الولايات المتحدة قد رفعت بشكل جزئى حالة التأهب على أثر اتفاق بين موسكو وواشنطون حين وافق مجلس الأمن على قرار تبنته ثمانية دول من مجموعة عدم الانحياز يقضى بأن لا تشترك دول مجلس الأمن الدائمين فى قوات حفظ السلام وفى نفس اليوم أعلن برجنيف أن موسكو سوف ترسل ممثلين Representatives من الضباط الكبار يرتدون الزى المدنى الأمر الذى يبعدهم عن التدخل، كما أعربت الولايات المتحدة أنها سترسل عددا صغيرا من المراقبين observers إذا ما طلب منها فالدهايم ذلك وهكذا وكما عبر الرئيس الأمريكى تلاشت أصعب أزمة واجهت البلدين منذ أزمة الصواريخ الكوبية.

وقد ظل الشغل الشاغل للباحثين والدارسين فى أعقاب حرب أكتوبر وتأثيرها على علاقات القوتين هو تأمل المعنى

الحقيقى لهذه الحرب على ما أرادته القوتين من بناء علاقات جديدة تقوم على التعاون أكثر من المواجهه ، وعند معظمهم بدا أن حرب أكتوبر قد أوضحت بالتجربة العملية حدود هذا الطموح ، فهى لم تلغ عنصر صراع المصالح بين قوتين ، وإنه رغم ما تقدمه عملية الوفاق من اطار جديد ، بما كان أكثر أمانا للمنافسة بينهما ، إلا أنه لم يحول هذه المنافسة إلى تعاون شامل .

وفى مذكراته فيما بعد أشار ريتشارد نيكسون إلى حدود عملية الوفاق قائلاً « .. كان تقييمى لمسلك السوفيت خلال أزمة الشرق الأوسط أنه ليس مثلا على فشل الوفاق وإنما دليل على حدوده وهى حدود كنت أدركها » .

على الرغم من حرص الحكومتين السوفيتية والأمريكية على إبراز عنصر تعاونهما خلال أزمة حرب أكتوبر ، إلا أن هذا لم يخف تباين مواقفهما ، التى أدت بهما إلى الاقتراب من المواجهة ، قد ضاعفت من المخاوف حول مستقبل هذه العلاقات وزادت ، وخاصة فى الولايات المتحدة ، من شكوك الكثيرين حول ثبات الدعائم التى يرتكز عليها الوفاق

وافتراضاته الأساسية إلى مواجهة مصالح البلدين المتناقضة والمتصارعة أحيانا .

كما ارتبط بهذا عدد من الجوانب السلبية منها عدم تحقق أى تقدم خلال النصف الأول من عام ١٩٧٤ فيما يتعلق بالمرحلة الثانية من محادثات الحد من التسلح الاستراتيجى بما لم ينبىء باحتمال وفاء البلدين بارتباطه فى مؤتمر القمة الثانى من تحقيق اتفاقية شاملة عام ١٩٧٤ . الأمر الذى رجح وجهة نظر القائلين بأن العلاقة الجديدة للقوتين الأعظم لم تؤثر فى الشكوك الأساسية لدى قوتين تجاه بعضهما البعض ، كما ثارت خلال هذه الفترة بشكل أكثر حدة مسألة ما عرف بالمنشقين السوفيت وتصرفات السلطات السوفيتية تجاههم والتى جاءت رمزا عليها طردها للكاتب الروسى الكسندر - سولنجستين من الاتحاد السوفيتى مما أثار فى الولايات المتحدة موجة جديدة، من الشكوك حتى بين الدوائر الليبرالية التى دافعت بقوة عن سياسة الوفاق وسياسة الحد من التسليح - أما فى الاتحاد السوفيتى فإن قيادته كان لديها إحساس متزايد بالضيق من

تزايد الهجوم على الاتحاد السوفيتى فى الولايات المتحدة ومن عدم منح شرط الدولة الأكثر رعاية للاتحاد السوفيتى وتدخلات الكونجرس الأمريكى فى ربط هذا باتفاقية تعطى حق الهجرة لليهود السوفيت هذا فضلا عن الأسلوب المنفرد للولايات المتحدة فى قضية الشرق الأوسط فى أعقاب حرب أكتوبر .

على الرغم من هذا فقد كان للحكومتين السوفيتية والأمريكية مصلحة فى استمرار عملية الوفاق ممثلة فى اجتماعات القمة . ففى الولايات المتحدة كان موقف رئيسها يعانى ضعفا شديدا نتيجة لقضية وترجيت وهو ما جعله يتطلع لأن يقدم نفسه كشخصية لا غنى عنها فى أى علاقات ناجحة مع الاتحاد السوفيتى ، أما فى الاتحاد السوفيتى فإن قيادته كانت شغوفة بتحقيق تقدم على عدة جبهات . فى ظل هذه الظروف وعقد مؤتمر القمة الثالث فى موسكو – ٢٧ يونيو من يوليو ١٩٧٤ .

وهو المؤتمر الذى قدم بعده بشهرين الرئيس الأمريكى استقالته وخلفه فى الرئاسة نائبه جرالد فورد ، وستشمل هذه

المرحلة تراجعا ملحوظا فى العلاقات الأمريكية السوفيتية وتصدعا للآمال التى ولدها مؤتمر القمة الأول والثانى على وجه الخصوص .

فعلى الرغم من أن الرئيس الأمريكى الجديد قد واصل سياسة سلفه فى الاجتماع بالزعيم السوفيتى حيث التقيا فى ڤلاديڤوستك بالاتحاد السوفيتى فى نوفمبر ١٩٧٤ ، إلا أن مجموع العلاقات السوفيتية الأمريكية شهدت عقب هذا تدهورا أخطر حين ألغى الاتحاد السوفيتى اتفاقية التجارة مع الولايات المتحدة ، والتى كانت من دعائم وأهم نتائج مؤتمر القمة الأول ، وذلك ردا على شروط الكونجرس الأمريكى ، وما تلى هذا من تطورات فى أنجولا ، وتأييد الاتحاد السوفيتى السياسى والعسكرى للجبهة الشعبية للتحرير فى أنجولا ذات الانتماءات والعقيدة الماركسية ، وتزايد التحذير فى الولايات المتحدة من تصاعد برنامج التسلح السوفيتى وما يمثله من تحدى وتهديد للولايات المتحدة .

وهكذا فبينما وصلت موسكو والعلاقات السوفيتية الأمريكية تكتسب قوة إندفاع وأساس للحوار والتعاون ، فقد غادرتها فى نهاية عام ١٩٧٤ وهذه العملية تعانى من التراجع والأزمات وبشكل يومى باستمرار عناصر الخلاف فى علاقاتهما ، أما فى العلاقات المصرية السوفيتية فرغم التعاون العسكرى والسياسى خلال حرب أكتوبر إلا أن التحولات والسياسة المصرية نحو الاستعانة والاعتماد على الولايات المتحدة فى مستقبل التسوية السياسية وتحقيق اتفاقيات فض الاشتباك ، قد جدد الشكوك لدى القيادة السوفيتية حول نوايا القيادة المصرية فى تهميش الدور السوفيتى فى الترتيبات السياسية والدبلوماسية واطلاق يد الولايات المتحدة فى تقرير مستقبل الأوضاع فى المنطقة ، وهى الشكوك التى تدعمت وتطور الأمر فى نهاية السبعينات إلى ما يشبه القطيعة بين البلدين .

□□□

قبل أن انتقل إلى ما اعتبره فصلا رئيسيا فى حياتى الدبلوماسية ، وهو عملى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، من

المفيد أن أتوقف عند تجربة مختلفة وهى عملى فى نيجيريا، ١٩٧٧ - ١٩٨٠ ، حيث أتاحت لى هذه التجربة فرصة تطوير معرفتى بالقارة الأفريقية وقضاياها .

ولعل أبرز ما يجب تسجيله هو ما شهدته فى نيجيريا من تجربة مشجعة بالنسبة لنظم الحكم والسياسة فى القارة الأفريقية فقد نقل الحكم العسكرى الذى كان يحكم بقيادة الجينرال أوباسانجو - الرئيس المنتخب الحالى - نقل الحكم إلى المدنيين وأجرى انتخابات نظيفة على المستوى القومى وعلى مستوى حكام الولايات ، وقد تابعت هذه التجربة لمدة ثلاث سنوات بأمل استقرارها وأن يكون نموذجا يحتذى من الدول الأفريقية ، غير ظروف الانقسامات وعوامل الفساد الداخلى كانت أقوى منها وسرعان ما عادت نيجيريا إلى الحكم العسكرى .

كذلك شهدت ممارسة نيجيريا لدورها وكما تتصوره عن نفسها كقوة أفريقية كبرى ، ودورها فى عدد من القضايا الافريقية من تشاد إلى الجنوب الأفريقى ، وهذا ما دعت من أجله عدد من مؤتمرات القمة الافريقية ، وهى المناسبات التى

جعلتنى اقترب أكثر من عدد من الشخصيات الدبلوماسية المصرية وأرى أداءهم «فى الميدان» مثل الدكتور بطرس غالى، والسفير د. سمير أحمد ، والسفير المرحوم أحمد صدقى . أما المستوى الآخر لتجربتى فى نيجيريا فكانت على مستوى العلاقات المصرية النيجيرية وفى فترة دقيقة بالنسبة للدبلوماسية المصرية وهى الفترة التى أعقبت إتفاقات كامب دافيد والمقاطعة العربية لمصر وجهودها لعزل مصر إقليميا ودوليا ، وأشهد أن نيجيريا قد وقفت إلى جانب مصر فى هذه الفترة ودافعت عن دورها الإفريقى ومكانها فى منظمة الوحدة الإفريقية وعدم الانحياز .

وعلى مستوى علاقات نيجيريا الدولية ، فقد شهدت تحول السياسة الخارجية الأمريكية فى عهد كارتر نحو أفريقيا والدور الأمريكى فى الجنوب الأفريقى ، وهو ما رمزت إليه زيارة كارتر لنيجيريا عام ١٩٧٩ كأول زيارة لرئيس أمريكى لأفريقيا وكذلك زيارة المستشار الألمانى هيلموت شميدت والذى لاحظت ولاحظ الجميع أنه قد خصنى ، وحيث كنت فى هذا الوقت قائما بالأعمال ، بعدة دقائق عبر خلالها عن دعمه

للسياسة المصرية وطلب أن أنقل تحياته إلى صديقه أنور السادات . غير أنه لايجب أن أنهى هذه السطور عن تجربتى فى نيچيريا دون أن أذكر أحد إيجابياتها وهى أنها قد عرفتنى بأحد أنقى وأقدر الدبلوماسيين المصريين وهو السفير الدكتور عبدالهادى مخلوف وهى الخصائص التى أهلته لكى يختاره السيد حافظ إسماعيل مديرا لمكتبه حين كان يعمل مستشارا للأمن القومى .

الفصل الثانى

واشنطون : سنوات التحول

مع عام ١٩٨٢ كنت - موضوعياً ومهنيا - مهيأ لكى أنقل للعمل فى عاصمة كبيرة ، فقد كانت آخر بعثة دبلوماسية عملت بها هى لاجوس والتى كانت تعتبر بمعايير وقواعد تنقلات أعضاء السلك الدبلوماسى من المناطق الصعبة ، غير أنه فى الشهور التى سبقت حركة تنقلات جرت معى بعض الاتصالات التى كانت توحى بأن التفكير يتجه إلى نقلى إلى بكين وهو ما صرف النظر عنه إزاء ما علمته ، بعد ذلك بسنوات ، من تدخل الدكتور بطرس غالى ، الذى كان وقتئذ وزيرا للدولة للشئون الخارجية ، لدى السيد كمال حسن على وزير الخارجية موصيا بنقلى للعمل فى واشنطون . وواضح أن الرجل بموضوعيته وحرصه وتدقيقه فى اختيار العناصر واستثمار قدراتهم قد أدرك أنى مهيأ للعمل فى واشنطون بما يتطلبه هذا من خصائص وقدرات .

كانت علاقتى بالدكتور غالى عملية بحتة ، فقبل تعيينه وزيرا ، كنت أتردد عليه بانتظام فى مجلة السياسة الدولية التى كان يرأس تحريرها، لكى أقدم له دراسة أو مقالاً ولابد أنه من خلال ذلك أدرك اهتمامى ومتابعتى للشئون الأمريكية

خاصة حين قدمت له دراسة عن هنرى كيسنجر تبحث فى العلاقة بين رؤيته كباحث ومفكر استراتيجى وبين ممارساته كدبلوماسى ووزير خارجية ، ثم أهديت له كذلك كتابى عن «هنرى كيسنجر حياته وفكره» والذى كان محصلة عام قضيته دارسا فى جامعة أكسفورد اطلعت خلاله على أعمال كيسنجر الأكاديمية وعلى معظم ماكتب عنه وأردت بهذا الكتاب أساسا أن أقدم المصادر الفكرية والتاريخية والفلسفية التى يعالج بها كيسنجر القضايا الدولية ، والتى كشفت عن الشخصيات التى درسها وتأثر بها وكتب عنها مثل أرنولدتوينبى ، وكانط ، واسبنجلر وهى الشخصيات التى خصص لها رسالته للماجستير عن «معنى التاريخ» the meaning of History، وكذلك النماذج والشخصيات الدبلوماسية من بسمارك وكاسترله ، التى صاغت دبلوماسية توازن القوى التى حكمت العالم بعد الحروب النابولينية ووفرت سلاما دام قرابة قرن ، بالاضافة إلى هذه الأعمال التى عرفت من خلالها الدكتور غالى كان إشرافه على رسالتى للدكتوراه عن العلاقات الأمريكية السوفيتية والتى ظل متمسكا باستمرار إشرافه عليها حتى بعد أن عين وزيرا .

وكان العمل فى واشنطون ، وهى أهم موقع للدبلوماسية المصرية ، يمثل تجربة جديدة بالنسبة لى لا من ناحية العمل ومتطلباته وخبرتى بالسياسة الأمريكية وإنما من زاوية نظام الحياة والمجتمع الأمريكى خاصة وأنى قد أمضيت معظم خبرتى الدبلوماسية فى البلدان والمجتمعات الاشتراكية وتختلف جذريا فى المناخ السياسى والاجتماعى ونظام الحياة عن النظام الأمريكى، بالإضافة إلى هذا القلق الموضوعى كان هناك الاعتبار الشخصى المتمثل فى شخصية السفير الذى لم أكن قد عملت معه، أو أعرفه إلا من خلال مايحيط بشخصه وما يوحى بأن العمل معه ليس سهلا خاصة مع الذين لايعرفهم أو يرتاح لهم شخصياً، وقد صحت هذه الرؤية خاصة فى الشهور الأولى لعملى غير أن الوضع قد تغير بمضى الوقت، فمن ناحية شعرت أنى أعمل وأتعلم من خبرة كبيرة خاصة فى الشئون الأمريكية والدبلوماسية وكنت افتخر بالاحترام الذى يحمله له الأمريكيون وكانوا يسمونه «بالأستاذ» Professor وكانوا يدركون إيمانه بالعلاقات

الأمريكية المصرية وحرصه عليها ولذلك كانوا يتقبلون نصائحه حتى لو كان ذلك فى صورة نقد بل ويطلبونها، ومن ناحيته فإن الدكتور غربال بدأ يدرك أنه يمكنه الاعتماد علىّ والثقة بىّ وهو مابدا فى أنه أسند إلىّ ماقد يكون أكثر مجالات العمل أهمية ودقة وهو العمل والاتصالات مع الكونجرس وخاصة مجلس الشيوخ، كما كان يشركنى فى مهام غاية فى الدقة فى العلاقات الأمريكية المصرية وقد استمر هذا الشعور حتى بعد انتهاء فترة عمله فى واشنطون وحين عاد فى مهمة للإعداد لزيارة الرئيس مبارك كنت أنا الذى أوكل إلى مهام ترتيب لقاءاته واجتماعاته.

ومثلما توافق وصولى إلى موسكو مع أحداث مهمة فى العلاقات المصرية السوفيتية وكذا فى السياسة الخارجية السوفيتية، كذلك توافق وصولى إلى واشنطون فى أغسطس ١٩٨٢ مع تطور مهم فى السياسة الأمريكية تجاه قضية الصراع الفلسطينى الإسرائيلى . ففى ١ سبتمبر ١٩٨٢ وفى بيان أذاعه على الهواء الرئيس الأمريكى رونالد ريجان موجه إلى الأمريكيين قدم مبادرة أمريكية جديدة لحل الصراع بين

الفلسطينيين والإسرائيليين. وبدا أن ماتم من اتفاق على خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان قد شجعه على هذه المبادرة، غير أن الاطار الأساسى الذى انطلقت منه المبادرة هو المواجهة الأمريكية السوفيتية حيث أقر ريجان أن دافعه الأول فى هذا التحرك الجديد هو التهديد الإستراتيچى الذى يمثل الاتجاه السوفيتى وعملائه بهذه المنطقة ودلل على هذا بالوضع فى أفغانستان. كذلك اعتبر ريجان أن أساس تحركه الجديد يستند إلى اتفاقيات كامب ديفيد وخاصة فى الشق الخاص بالحكم الذاتى للفلسطينيين والذى اعتبر أنه يمثل الأساس لتمهيد الطريق للسماح للفلسطينيين بممارسة حقوقهم المشروعة Legitimate Rights . وقد استخلص ريجان فى مبادرته عدداً من الحقائق منها : أن الخسائر التى تعرضت لها منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان لم تقلل من تطلع الشعب الفلسطينى لحل عادل لمطالبهم، وثانياً أن النجاحات الإسرائيلية فى لبنان قد أثبتت أن قوتها المسلحة هى الأولى فى المنطقة إلا أن هذه القوة وحدها لاتستطيع أن تحقق العدل والسلام الدائم لإسرائيل وجيرانها وأن هذا لن

يتحقق إلا على مائدة المفاوضات لكى تواجه سؤالا حول كيفية موائمة اهتمامات إسرائيل الأمنية مع الحقوق المشروعة للفلسطينيين والإجابة على هذا السؤال أنها تتحقق فقط على مائدة المفوضات حيث يعترف كل جانب أن النتيجة يجب أن تكون مقبولة للجميع وأن السلام الحقيقى يتطلب الحلول الوسط من الجميع، وعلى هذا فقد دعا ريجان إلى بداية جديدة دعا فيها :

- إسرائيل أن تجعل من الواضح أن الأمن الذى تتطلع اليه يمكن أن يتحقق فقط من خلال سلام حقيقى وأن هذا السلام يتطلب الكرم والرؤية والشجاعة.

- ويدعو الشعب الفلسطينى أن يدرك أن أمانيه القومية ترتبط بشكل وثيق بالاعتراف بإسرائيل وحقها فى مستقبل آمن.

- ويدعو الدول العربية إلى قبول واقع إسرائيل وحقيقة أن السلام والعدل إنما يكسب فقط من خلال مفاوضات صعبة وعادلة ومباشرة.

وتحدث ريجان عن تصوره لحدود إسرائيل بما يعنى تبنيه للمفهوم الإسرائيلى لعدم العودة لحدود ١٩٦٧ فقال أنه فى

نطاق حدود ١٩٦٧ كانت إسرائيل مجرد ١٠ ميلاً فى أضيق نقاطها وباتساع ١٠ ميل وكانت معظم إسرائيل تعيش فى نطاق الجيوش العربية المعادية وأنه لن يطالب إسرائيل أن تعيش بهذه الطريقة ثانية. فى نفس الوقت أوضح ريجان أن رحيل الفلسطينيين من بيروت إنما يجسد أكثر من أى وقت مضى أن الشعب الفلسطينى يعيش بلا أرض وأن الفلسطينيين ينظرون بقوة أن وضعهم هو أكثر من قضية لاجئين وأنه يوافق على ذلك .

فى ضوء هذا قدم ريجان مقترحاته الجديدة:

أولاً : وكما جاء فى كامب داڤيد فإنه يجب أن يكون هناك فترة يحصل فيها السكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة على الحكم الذاتى الكامل لشئونهم ويصبح الهدف من فترة الخمس سنوات الانتقالية والتى تبدأ بعد انتخابات السلطة الفلسطينية للحكم الذاتى هى أن تثبت للفلسطينيين أنهم يسطيعون أن يديروا شئونهم الخاصة وأن هذه السلطة الفلسطينية لاتمثل تهديداً لإسرائيل.

ثانياً : إن الولايات المتحدة لن تؤيد استخدام أى أراض اضافية لفرض المستوطنات خلال الفترة الانتقالية، والحقيقة أن الوقف الفورى للمستوطنات من جانب إسرائيل أكثر من أى وقت آخر يمكن أن يخلق الثقة المطلوبة للاشتراك الأوسع فى هذه المحادثات وأكثر من هذا فإن النشاط الاستيطانى ليس بأى حال ضرورة لأمن إسرائيل وهو فقط يقلل من ثقة العرب فى أى نتيجة نهائية يمكن التفاوض حولها بحرية وبشكل عادل وتحدث ريجان عن مرحلة مابعد الحكم الذاتى وإمكانية قيام دولة فلسطينية فذكر أنه من الواضح له أن السلام لا يمكن أن يتحقق بقيام دولة فلسطينية مستقلة فى هذه الأراضى، كما أن السلام لايمكن أن يتحقق على أساس من السيادة الإسرائيلية الدائمة أو السيطرة الدائمة بواسطة إسرائيل واستخلص طريقا ثالثاً وهو حكما ذاتيا للفلسطينيين فى الضفة وغزة فى ارتباط مع الأردن.

In Association with jordan

الأمر الذى اعتبر أنه يقدم أفضل فرصة لسلام عادل ودائم. كذلك قدم ريجان رؤية لنطاق تطبيق القرار ٢٤٢ فذكر

أن موقف الولايات المتحدة يستند إلى أنه مقابل السلام فإن المواد التي تنص على الانسحاب فى القرار ٢٤٢ أنها تنطبق على كل الجبهات بما فيها الضفة الغربية وغزة ، وحول القدس عبر على استمرار قناعة الولايات المتحدة إن القدس يجب أن تبقى غير مقسمة ولكن وضعها النهائى يجب أن يتقرر من خلال المفاوضات.

وهكذا حاولت المبادرة أن تكون متوازنة وأن تبنى على اتفاقيات كامب داڤيد خاصة فيما يتعلق بفقرة الحكم الذاتى للفلسطينيين، غير أن أهم ماجاءت به المبادرة من وجهة النظر الفلسطينية والمصرية هو حديثها عن المستوطنات ومطالبة إسرائيل بالوقف الفورى لها وأنها لاتمثل ضرورة لأمنها أو أساسا للسلام أو تشجيعها على التفاوض كذلك لاحظ المراقبون أن من جوانبها الايجابية اقرارها بالحقوق المشروعة للفسلطينيين وإن كانت قد رفضت قيام دولة فلسطينية مستقلة ووضعت الكيان الفلسطينى فى إطار ارتباط مع الأردن. وربما كانت هذه الجوانب الإيجابية وراء ردود الفعل الإيجابية التى صدرت عن عواصم عربية مثل مصر والسعودية والمغرب

ومنظمة التحرير الفلسطينية واعتبرت تعليقات عربية أن المبادرة «هى أبرز ماطرح خلال السبعة عشر عاماً الأخيرة»، أما إسرائيل فقد بذلت مافي وسعها للقضاء على المبادرة الجديدة وربما كانت الرسالة التى بعث بها بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى الحكومة الأمريكية وقوله «لايمكن للصديق أن يخون صديقه ولا للحليف أن يتخلى عن حليفه» تعبيراً عن نظرة إسرائيل للمبادرة ولما ستفعله للقضاء عليها.

□□□

كان شهر سبتمبر ١٩٨٢ الذى وصلت فيه إلى واشنطن شهرا ملتهباً فى الشرق الأوسط يعيش أجواء وتداعيات الغزو الإسرائيلى فى لبنان فى نفس العام ، وكان الوضع يتميز بما أسماه چورچ شولتز «بالفوضى فى قناع آخر»، وبالنسبة للولايات المتحدة فقد قررت سحب قواتها التى كانت تعمل ضمن قوات الأمم المتحدة وذلك رغم اغتيال الرئيس اللبنانى بشير الجميل وعبر چورچ شولتز بأن «كل ما قمنا بها ينهار أمام أعيننا بفضل تصرفات إسرائيل العسكرية والتضليل الدبلوماسى الذى تمارسه . ومع منتصف شهر سبتمبر كانت

إسرائيل قد أحكمت قبضتها على بيروت وأحاطت قواتها بالمخيمات الفلسطينية فى جنوب المدينة غير أن الوضع ظل يتطور إلى مذبحة فى مخيم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين وأفادت التقارير الأولية أن ميليشيات الكتائب اللبنانية قامت بارتكاب المجـزرة وأن بعض الناجين شـاهدوا الجـرافـات الإسرائيلية وهى تلقى بالانقاض فوق اكوام الجثث، حدث هذا فى وقت كانت القوات الدولية تحيط ببعض مداخل المخيمين المنكوبين وأبلغ الناجون المسئول الأمريكى كروكر أن مسلحين اقتادوا النساء والأطفال إلى ملعب قريب ثم اقتادوا الشبان والرجال فى مجموعات حيث أمروهم بالوقوف فى محاذاة أسوار المخيم وأعدموهم جميعاً بالرشاشات الاتوماتيكية ومن مسافة قريبة جداً، ثم جاءت التقارير التفصيلية تقول : إنه فى مساء يوم ١٨ سبتمبر مهدت القوات الإسرائيلية الطريق أمام ميليشات الكتائب لدخول مخيم صبرا للاجئين الفلسطينيين وبدأت القوات الإسرائيلية باطلاق قنابل الإنارة لتسهيل مهمة عناصر الميليشيات وكان الجنود الإسرائيليون مدركون تماماً

لما يحدث داخل المخيم وفى اليوم التالى أعيد تطبيق السيناريو ذاته فى مخيم شاتيلا.

وقد شعرت الإدارة الأمريكية بالغضب لأن إسرائيل قد خدعتهم حيث أدعت أنها دخلت بيروت للحفاظ على الأمن ومنع سفك الدماء بعد إغتيال بشير الجميل وأن اللاجئين لن يتعرضوا لأى أذى وها هم يرون المذابح تسود المدينة غير أنه من المفارقات التى تنبىء عن الطبيعة الداخلية للسياسة الأمريكية والقوى التى تحركها أنه وسط كل هذه الظروف والممارسات الإسرائيلية فى مذابح صبرا وشاتيلا كان الكونجرس الأمريكى يناقش اقتراحاً بزيادة المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل بمقدار ٢٥٠ مليون دولار!.

وقد اضطرت هذه التطورات الإدارة الأمريكية إلى معاودة النظر فى عودة قوات المارينز إلى لبنان وكان ذلك على عكس الرغبة الأولية لوزير الدفاع وانيبرجر وفى خطاب ألقاه ريجان أعلن أن قوات البحرية الأمريكية ستعود إلى بيروت فى إطار القوات المتعددة الجنسيات. غير أن هذه القوات وكذلك القوات

الدولية بدأت تتعرض لهجمات متلاحقة خاصة من الميليشيات ووصل الأمـر إلى ذروته حين حلت كـارثة بقـوات المارينز الأمـريكيـة فـفى ٢٣ أكـتوبر ١٩٨٣ أخطر مـسـتـشـار الأمن القـومى الأمـريكى وزير خـارجـيـتـه أن شـاحنة تحـمل مـواد شـديدة الانفـجـار اقـتحـمت مـواقع الجنود الأمـريكيين - الذين كـانوا نائمين - الأمـر الذى أسـفـر عن مقتل ٢٤١ رجلاً الأمر الذى اعـتـبـر أسـوأ كـارثة تمر بـهـا إدارة ريجـان، وفى اليـوم التـالى خـسـرت فـرنسـا ٥٨ رجـلاً إثر تعـرضـهـم لهـجـوم انتحارى..

□□□

كان من تداعيات الغزو الإسرائيلى للبنان وأحداث صبرا وشـاتيـلا أن تعـرضت العـلاقـات المصرية الأمـريكيـة لبـعض الغيوم كانت نتيجة لقرار مصر استدعاء سفيرها فى تل أبيب احـتـجـاجاً على الأعمال الإسـرائيلية فى لبنان. وقد كان من الطبيعى أن يثير هذا القرار ردود فعل فى واشنطن ذلك أنه من المعروف أن العلاقات المصرية الأمريكية قد تأسست منذ السبعينيات على اتفاق السلام المصرى الإسرائيلى والذى

كان من نتيجته تطبيع العلاقات بما فيها العلاقات الدبلوماسية وكان تبادل السفراء تعبيراً عن ذلك، لذلك رأت الدوائر المختلفة فى واشنطن سحب السفير باعتباره تهديداً لما انجز أو تراجعاً من مصر وكان هذا هو الشاغل الرئيسى وخاصة للكونجرس الأمريكى شيوخاً ونواباً ولمساعديهم عند مناقشة العلاقات المصرية الأمريكية حيث ظلوا دائمو الطرق عليه والمطالبة بعودة السفير وهو ما ظلت مصر تقاومه وتصر على استمرار استدعائه وقد ظل هذا حتى سحب إسرائيل لقواتها من لبنان - (فيما عدا الشريط الحدودى الجنوبى).

غير أن العلاقات المصرية الأمريكية عادت فتعرضت لسحابة أخرى فى أكتوبر ١٩٨٥ حين قامت مجموعة من الفلسطينيين باختطاف سفينة رحلات إيطالية - الكيلولاورو - أثناء مغادرتها الإسكندرية. وقد عمدت الإدارة الأمريكية فى معالجتها لحادث الباخرة على أن تظل فى النطاق المصرى وأن تحل بتفاوض مصرى أمريكى. وكان المختطفون يطلبون عدم تسليمهم أو مقايضتهم مقابل تسليم أنفسهم لمنظمة

التحرير الفلسطينية وقد وافقت مصر على ذلك، ورغم أن السفير الأمريكى فى القاهرة فليوتس قد أوصى بقبول ذلك الا أنه قوبل بالرفض من وزير الخارجية الأمريكى محتجاً بأنه لايجب أن يكون الخاطفون أحراراً. وكان السفير الأمريكى قد صعد إلى ظهر السفينة فى بورسعيد حيث قذف الخاطفون بسائح أمريكى وألقوه وهو على كرسيه ذو العجلات وهددوا بقتل مسافرين آخرين. وقد دفع هذا التطور بوزير الخارجية شولتز أن يطلب بشكل عاجل من سفارته بالقاهرة الضغط على مصر لكى تعتقل المختطفين وتحاكمهم وقد جاء رد وزير الخارجية عصمت عبد المجيد أن مصر قد وعدت الخاطفين بالأمان أثناء خروجهم من مصر. وبالفعل غادرت طائرة «مصر للطيران ٧٣٧» تقل الخاطفين وفوجىء الرأى الأمريكى السلطات الأمريكية بالتصرف معها فصدرت الأوامر إلى الطائرات المقاتلة أن تنطلق من حاملة الطائرات ساراتوجا لتقوم بتحويل اتجاه الطائرة المصرية إلى قاعدة سيفونيللا فى صقلية والتابعة لحلف شمال الاطلنطى الأمر الذى استجاب له قائد الطائرة المصرية، وطلب من السفير الأمريكى فى

القاهرة أن يبلغ وزير الدفاع المصرى - المشير أبو غزالة «أن يترك المسألة لنا وينفض يده منها»، وذكر چورچ شولتز فى مذكراته بأن وزير الدفاع المصرى قد «عبر عن إعجابه الشديد بما فعلناه وأن فكرته كانت رائعة..»، غير أن الرئيس حسنى مبارك فى تصريح له فى ٢٢ أكتوبر وصف اجبار الطائرة المصرية على الهبوط فى مطار سيفونيلا «بالقرصنة الجوية».

□□□

وفى عام ١٩٨٣ بدا واضحاً تركيز الإدارة الأمريكية على ليبيا وادعاء صلتها بأعمال إرهابية، وفى عام ١٩٨٤ أصدر مكتب مكافحة الإرهاب بوزارة الخارجية أن ١٥ عملية إرهابية قد نفذت تحت اشراف ليبيا وحيث وصف معمر القذافى أعمالاً إرهابية راح ضحيتها مدنيون من بينهم مواطنين أمريكيين بأنها «أعمال بطولية» وتبين أن الذين نفذوا هذه العمليات يحملون جوازات سفر تونسية زورت فى ليبيا، وكرد فعل على هذا شددت الولايات المتحدة العقوبات الاقتصادية على ليبيا وظهر من يطالبون بعمل انتقامى ضد أهداف ليبية

عسكرية وفى عام ١٩٨٦ أصدر الرئيس الأمريكى تحذيراً واضحاً بأن الولايات المتحدة سوف تعتبر استخدام ليبيا لإرهابيين لقتل رعايا أمريكيين فى الخارج باعتباره هجمات قوات ليبية نظامية مما يستدعى رد فعل مناسب، أما وزير الخارجية شولتز قد ألقى خطاباً أمام جامعة الدفاع الوطنى تحدث عن موضوع الحرب ذات المستوى المنخفض Low Imrensive war صاغ فيه مفهوم رعاية الإرهاب معتبراً أن القانون يسمح برد فعل مناسب ضد دولة ترعى الإرهاب فى الخارج وأنه فى حالة عدم نجاح الأساليب الأخرى فلابد من استخدام القوة وإلاّ فإن قانون الأمم المتحدة يصبح عبارة عن ميثاق إشعار وأكد أن الدولة التى ترعى الإرهاب والنشاطات الأخرى على أرضها هى المسئولة عن تلك الهجمات (لاحظ أن هذا هو نفس المفهوم الذى تبنته بعد ذلك إدارة بوش الابن فى مفهومها عن الضربات الاستباقية أو موقفها من الأمم المتحدة).

وفى عام ١٩٨٦ تجدد النزاع الأمريكى الليبى حول خليج سدرة الذى اعتبره القذافى فى مياه ليبيه وبهذا الاعتبار اطلقت القوات الليبية النار على الطائرات الأمريكية خلال

تمارين الأسطول الأمريكى - وقد ثار جدل بين وزارت الخارجية والدفاع الأمريكية حيث كانت الأول ترجح المبادرة، بضرب أهداف عسكرية ليبية أما وزارة الدفاع فكانت ترى أن يكون الأساس هو «ضربة مقابل ضربة» وعلى هذا أصبح مسموحاًللطيارين الأمريكيين إذا ما اطلقت عليهم الصواريخ الليبية أن يردوا بضرب الأهداف التى صدر منها هذا الضرب وبالفعل على أثر اطلاق صاروخ ليبى ردت الطائرات الأمريكية بضرب أهداف ليبية وأطلقت صواريخ جو أرض على قواعد طائرات ليبية وتدمير الرادارات، وتصاعدت التهديدات إلى الحد الذى أبلغت فيه ليبيا السفراء الأجانب فيها بأن ليبيا فى «حالة حرب» مع الولايات المتحدة وأنها تعتبر المنشآت الأمريكية فى دول حلف شمال الاطلنطى أهدافاً.

غير آن تطوراً جديداً حدث حين انفجرت فى ٥ ابريل ١٩٨٦ قنبلة فى قاعة دسكو فى برلين الغربية قتل فيها ١٥٥ شخصا منهم من ٥٠ - ٦٠ أمريكيا وربطت تقارير المخابرات الأمريكية بشكل لا يرقى اليه الشك بين الحادث وليبيا. وبدأت المناقشات فى واشنطن حول الأهداف الليبية التى يمكن

ضربها وانتهت هذه المناقشات بأن قرر الرئيس الأمريكى أن هذه الأهداف المحتملة هى : قاعدة طرابلس الجوية، وقاعدة طربلس البحرية، وقاعدة بنغازى البحرية، وقاعدة ينبا الجوية ومعسكر ظن أنه لتدريب الإرهابيين فى سيدى بلال، وقيادة المخابرات ومسكن للقذافى، وفى ٢٤ ابريل تحدث ريجان عبر التليفزيون وأعلن أن «القوات الجوية والبحرية الأمريكية قامت بسلسلة من الهجمات استهدفت القيادة والمنشآت الإرهابية والقوات العسكرية التى تدعم النشاطات التخريبية للعقيد القذافى» وأضاف «أن العقيد القذافى ليس عدو أمريكا وحدها بل له سجل تخريبى وعدوانى موثق ضد دول أفريقية مجاورة، وقد أمر القذافى بقتل ليبيين فى عدد كبير من البلدان وقام بأعمال رعب فى أفريقيا وأوربا والشرق الأوسط ونصف الكرة الغربى كذلك، وقد فعلنا ما كان يجب أن نفعله ونحن مستعدون للقيام بذلك مرة أخرى إذا لزم الأمر ..؟ وأضاف « .. لقد أعربت أمريكا عن رغبتها فى التعاون مع آخرين إن كان بالإمكان أو سنعمل وحدنا عند الضرورة..» .

وكانت الولايات المتحدة قد اتصلت بالعديد من الدول للسماح لها باستخدام أجوائها الأمر الذى تجاوبت معه بريطانيا، ولكن المجموعة الأوروبية اعتبرت أن الهجوم الأمريكى على ليبيا سيضر بالعلاقات الاطلنطية أما مصر فقد رفضت السماح بسفن نووية أمريكية بالمرور فى قناة السويس.

ولكن كيف نقيم ميراث رونالد ريجارن وإدارته فى الشرق الأوسط ؟ فى رأى أحد أبرز الخبراء فى الشرق الأوسط ويليام كواندت ، أن دور ريجان فى الشرق الأوسط كان سلبيا coumrev pvoductive فهو أساسا لم يبد اهتماما بمتابعة ما بدأه الرئيس الأمريكى السابق كارتر حول عملية السلام فى المنطقة ، وفى ضوء منظاره للقضايا الدولية من خلال الحرب الباردة التى تكثفت فى عهده ، فإن إسرائيل قد تحولت فى عهده إلى Srvatigic Asset .

ولم يقبل عقل الإدارة فى هذا الشأن أى ظلال أو زوايا معقدة ، فى هذا السياق أيضا زار شارون كوزير للدفاع الإسرائيلى واشنطون فى أوائل الثمانينات وكانت زيارته

أساسا لإطلاع واشنطون أن إسرائيل لديها خطة لغزو لبنان وقد اقترب الكسندرهج وزير الخارجية الأمريكى آنذاك من إعطائه الضوء الأخضر لذلك . وللحظة قصيرة أدرك ريجان أن شيئا يجب أن يحدث فى الشرق الأوسط ومن ثم كان إطلاقه لمبادرته للشرق الأوسط أشرنا إليها وإن كانت ، بالإضافة إلى محاربة إسرائيل لها ، قد افتقدت أى استراتيچية لتنفيذها وتحولت إلى مجرد كلمات فارغة . ونتيجة لهذا فى رأى كواندت تحولت الثمانينيات لكى تكون فترة ضائعة بالنسبة لصنع السلام العربى الإسرائيلى على إنها انتهت بالانتفاضة وجهود التيارات الراديكالية ممثلة فى منظمات حماس والجهاد .

وفيما يتعلق بمنطقة الخليج فقد كانت سياسة إدارة ريجان على الأقل مشوشة ، فعلى السطح فقد كان يبدو أن الإدارة تلعب اللعبة الكلاسيكية لتوازن القوى ، فحين ترى إيران فى موضع الهجوم مالت الولايات المتحدة ناحية العراق، وقد استئنفت العلاقات بين البلدين فى منتصف الثمانينات وكان الثناء يغدق على صدام حسين وكان السبب واضحا ،

فقد كانت الولايات المتحدة أكثر تخوفا من جمهورية إيرانية اسلامية متشددة فى الوقت الذى كان صدام فيه حاكما علمانيا بل إنه بدأ فى بداية الثمانينيات يلمح إلى تبنى موقف أكثر اعتدالا من إسرائيل ، فى هذا الوقت أيضا كان العديد من شخصيات الإدارة يكرهون الرئيس السورى حافظ الأسد وكان هذا سببا إضافيا فى اجتذابهم لصدام ونظامه البعثى، فى هذه الأثناء أيضا زار رامسفيلد صدام حسين مباشرة بعد استخدامه للأسلحة الكيماوية ضد الأكراد ويبدو أنه لم يتعرض لهذا خلال زيارته ، وإذا كانت حقائق سياسات القوى تفسر الميل إلى العراق حتى عام ١٩٨٨ ، فكيف يمكن تفسير صفقة السلاح العربية إلى إيران عام ١٩٨٥ - ١٩٨٦؟!

وبعد سياسة الإدارة فى العراق وإيران تجىء أفغانستان التى ذهبت فيها الإدارة الأمريكية فى عهد ريجان إلى مدى بعيد لكى تدمى الاتحاد السوفييتى فيها من خلال شحن السلاح والمال إلى المجاهدين وتدريبهم ، وعندما انسحب السوفيت أدارت الولايات المتحدة ظهرها لافغانستان ممهدة الطريق لصعود طالبان وبعدها ظهور القاعدة كقوة قوية وفى

هذا فإن أسامة بن لادن مدّ يده بالكثير لرونالد ريجان وادارته . ويستخلص ويليام كواندت تصوره لما خلفته إدارة ريجان فى الشرق الأوسط معتبرا أن الكثير من أخطائها كانت نتاجا لجهل عميق بأمور المنطقة ونوع من الغرور الفكرى الذى قاد شخصيات الإدارة فى التورط فى استخدام القوة الطائشة وإزعان زائد لسياسات الليكود الإسرائيلية وخاصة سياسات شارون . وهذا بالتحديد نوع من الأخطاء التى ترتكبها الإدارة الحالية التى تصف نفسها دائما أنها وريثه الريجانية بل إن ميراث بوش فى المنطقة من المحتمل أن يكون أكثر سلبية من ريجان .

□□□

قبل أن استرسل فى رؤية الأحداث التى عاصرتها خلال عملى فى واشنطن من المهم أن أتوقف لكى أسجل التغير الذى حدث فى إدارة السفارة المصرية، ففى نهاية عام ١٩٨٤ بلغ السفير الدكتور أشرف غربال سن التقاعد كان الجميع مع توقع هذا التاريخ يتنبأون بمن سيخلفه فى هذا المنصب المهم والذى شغله الدكتور غربال لسنوات طويلة واختبر أحداث وتطورات مهمة فى السياسة الأمريكية والعلاقات

المصرية الأمريكية وبشكل خاص حين استئنفت العلاقات الدبلوماسية فى أوائل عام ١٩٧٤ بعد انقطاعها فى أعقاب حرب عام ١٩٦٧، هذا فضلاً عن المعرفة الحميمة للسفير غربال بالحياة والمجتمع الأمريكى منذ أن كان يدرس فى الجامعات الأمريكية فى الأربعينيات الأمر الذى جعله قريباً من قلوب الأمريكيين وحائزاً على ثقتهم، والذين عرفوا الدكتور غربال وعملوا معه عن قرب سوف يدركون حدة ذهنه ويقظته وحساسيته للتطورات المقبلة فضلاً عن ديناميكيته وحيث كان يسابق المسئولين الأمريكيين فى استيقاظهم المبكر حيث يبدأ اتصالاته بهم ومناقشة قضايا الأمس أو اليوم معهم وعلى هذا كان يأتى للاجتماع اليومى الصباحى لأعضاء السفارة ومعه حصيلة من الاتصالات والمعلومات، لهذا كله كان اختيار من سيخلفه صعباً وتحدياً لهذا الشخص فى نفس الوقت، وقد انتهى الأمر باختيار أحد الوجوه اللامعة فى وزارة الخارجية وهو السفير عبد الرؤوف الريدى وكان من أبناء الجيل الثانى، بعد جيل عصمت عبد المجيد، وأشرف غربال

وإسماعيل فهمى ومحمد رياض وأحمد عثمان، أما الجيل الثانى فكان يضم أحمد توفيق خليل ، وعمران شافعى والدكتور عبدالهادى مخلوف ونبيل العربى وأحمد ماهر السيد والمرحوم أحمد صدقى وعمرو موسى، وبالنسبة لى لم تكن تربطنى علاقة عمل أو معرفة شخصية بالسفير الجديد ولكن انطباعاتى عنه كانت إيجابية من خلال سمعته الطيبة وعمله الوثيق مع الوزير محمود رياض والمناصب الذى تقلدها فى الخارج والداخل وأيضاً من خلال تصورى لوجهه المضىء الذى يعبر عن شفافية وانفتاح وتوقعت أن علاقاتى معه ستكون طيبة، الأمر الذى تحقق منذ الساعات الذى استقبلته فيها فى المطار أنا والزملاء بالسفارة وصحبته فى سيارته إلى مقر إقامته، وخلال الطريق لم يشفع له سفره الطويل من أن أحدثه عن جدول الأعمال الذى ينتظره خاصة مع الكونجرس الأمريكى. وعلى المستوى المهنى حقق السفير الريدى نجاحا متوقعاً من شخص بخبرته فخلال شهور قليلة كان قد حصل هو والسيدة الفاضلة قرينته على ثقة الأمريكيين وامتلكوا أسلوب العمل والنفاذ إليهم وخاصة فى

تجربة العمل الصعبة فى العمل مع الكونجرس وأعضائه ، وتصورات من أكثر ما لفت نظرهم ما اسموه بسرعة بديهة Quik mind وبساطته ومصريته بل واعتزازه بأصوله الأولى فى قريته البحرية - عزبة البرج - وقد حرص على أن يزين جدران مكتبه بلوحات تصور أبناءها من الصيادين مع شباكهم . غير أنه فى الحديث عن هذه الشخصية من الأمانة أن يسجل له المرء عملا وطنيا كان يتعلق بقضية حيوية بالنسبة لمصر وأعنى بها الديون المصرية للولايات المتحدة والتى كانت هى وفوائدها المرتفعة عبئاً على الاقتصاد المصرى ، ومن اليوم الأول كانت هذه القضية هى شاغله وظل يطرق عليها مع الكونجرس حتى جاءت اللحظة الحاسمة التى التقطها ودعا المسئولين فى القاهرة إلى التمسك بها والاستفادة منها وهى لحظة حرب الخليج الثانية والمشاركة المصرية فيها والائتلاف الدولى الذى تشكل وبتعاون مع القيادة السياسية عمل على تعبئة أعضاء الكونجرس وحثهم على مطالبة الادارة بإعفاء مصر من ديونها العسكرية وهو ما تحقق وأعطيت مصر من ما يبلغ ٧ بلايين دولار .

قبل أن يتحقق هذا كان من القضايا المركزية فى العلاقات المصرية الامريكية والتى كانت تشغل مصر فى حوارها مع الولايات المتحدة وإدارة وكونجرس هى قضية الديون العسكرية على مصر وفوائدها المرتفعة وما كانت تمثله من عبء على الميزانية المصرية ، لذلك كان الوزراء المعنيون فى مصر يزورون واشنطون بشكل منتظم للمطالبة بخفض الديون ونسب فوائدها التى كانت تبلغ ١٢٪ والتى تقررت منذ بدء المساعدات ، وكانت الحجة الأمريكية التى يقابلون بها وخاصة من أعضاء الكونجرس ومساعديهم أنه إذا ألغت أو خفضت الولايات المتحدة ديون مصر بأنها سوف تضطر أن تفعل نفس الشىء مع دول أخرى وهو ما ليست الولايات المتحدة مستعدة له . وفى إطار المساعدات الأمريكية لمصر كانت واشنطون تستقبل كل عام وفدين مصريين أحدهما اقتصادى والآخر عسكرى ، وكان النقاش الأساسى يقع مع الكونجرس لمجلسيه باعتبار أنه هو الذى يقر المساعدات ويحددها ، وباعتبار التحفظات التى كانت تظهر فى الكونجرس والمطالبة لخفض المساعدات العسكرية

أو توجيهها إلى الشق الاقتصادى باعتبار أن مصر لم تعد تواجه تهديدا بعد توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل ، وفى هذا الشأن لابد أن أشير إلى الشخصية المصرية التى كانت تجيئ وتقوم بالدفاع عن المطالب المصرية فى المساعدات العسكرية وهو اللواء أحمد فخر ، فقد كان بتمكنه ولغته وفكره الاستراتيجى موضع تقدير من الجانب الأمريكى ، وكنت وأنا أشاركه فى اجتماعاته أتمنى أن تحسن مصر اختيار وفودها وأن تكون دائما على هذا المستوى المشرف والمقنع .

□□□

على الرغم من انشغال إدارة ريجان فى أوائل الثمانينات كما رأينا بقضايا الشرق الأوسط سواء فيما يتعلق بالنزاع الفلسطينى الإسرائيلى أو الوضع فى لبنان أو قضايا الإرهاب ، إلا أن قضيتها المحورية كانت هى العلاقات الامريكية السوفيتية واسلوب التعامل ، أو مواجهة الاتحاد السوفيتى ، وهى القضية التى كانت الإطار الذى يتم من خلاله النظر والتعامل مع جميع القضايا الاقليمية والدولية .

وكان الغزو السوفيتى لأفغانستان فى عام ١٩٧٩ ، ثم الثورة الايرانية وتداعياتها قد ساهمت فى خلق إحساس بتراجع الهيبة والمكانة الأمريكية بل بما أسماه الرئيس الامريكى نفسه وقتئذاك «چيمى كارتر» «بوعكة» Malaise تمر بها الولايات المتحدة داخليا وخارجيا . وقد استغل الحزب الجمهورى ومرشحه رونالد ريجان هذا المناخ وجعل من شعار معركته الانتخابية العمل على استعادة مكانة الولايات المتحدة والتصدى للتوسع السوفيتى ، واقترنت أدبيات حملتهم الانتخابية بنظرة محافظة إلى الاتحاد السوفيتى أعادت إلى الأذهان ليس فقط صورة الحرب الباردة فى أحلك أوقاتها وإنما ما اقترن بظهور الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ، وعن طبيعة النظام ونواياه ومدى الثقة فيه وفى قادته وبالتالى حول أسلوب التعامل معهم ، فقد قُدم الاتحاد السوفيتى على أنه قوة تكمن فيها العدوانية وبصورة لا يمكن تغييرها من خلال المفاوضات أو الاتفاقيات وإنما من خلال مواجهته من موقع قوة ولممارسة ضغوط جادة ومتماسكة عليه تجبره على تغيير طبيعته وشخصيته ، وفى أول مؤتمر صحفى حضره ريجان ، فى ٢٩ يناير ١٩٨١ سأله أحد الصحفيين عما إذا

كان يعتقد أن الاتحاد السوفيتي مازال مصمما على السيطرة على العالم الأمر الذى يؤدى إلى استمرار الحرب الباردة أو أنه فى ضوء الظروف الراهنة فإن الوفاق أمر محقق ؟ وأجابه ريجان .. « حتى الآن فإن الوفاق كان طريقا ذو اتجاه واحد وقد استخدمه الاتحاد السوفييتى لدفع أهدافه الخاصة ، وليس علىّ أن أفكر فى إجابة عما اعتقده عن نوياهم فقد كررها ولا أعرف زعيما سوفيتياً منذ الثورة بما فيهم القيادة الحالية لم يكرر أكثر من مرة فى العديد من المؤتمرات الشيوعية التى عقدوها تمسكهم وتصميمهم أن هدفهم هو تشجيع الثورة ، بما فيه إقامة دولة شيوعية عالمية واحدة ، وطالما يعلنون ذلك علانية فإن الأخلاق الوحيدة التى يعترفون بها هى تلك التى تدفع وتخدم قضيتهم بما يعنى أنهم يحتفظون لأنفسهم بالحق فى أن يرتكبوا أى جريمة وأن يكذبوا وأن يخدعوا من أجل تحقيق ذلك ، اعتقد أننا حين نتعامل معهم حتى فى ظل الوفاق فيجب أن نراعى ذلك ونأخذه فى الحسبان ».

وقد غذى هذا الاتجاه فى الادارة الجديدة ، وبشر له تيار محافظين جدد New Conserva tives وهو التيار الذى ظهر فى أوائل الستينيات واشتد فى أواخر السبعينيات ولعب دورا مؤثرا فى اسقاط كارتر ونجاح ريجان، استخدم هذا التيار قوته واستغل أن الشعب الامريكى بعد تجربة ڤيتنام ووترجيت وأزمة الرهائن يريد أن يؤكد نفسه ويثبت صحة الوضع الأمريكى ، والفلسفة الأمريكية ، وأن القوة الأمريكية التى تأثرت يمكن استعادتها ، وفيما يتعلق بتصور هذا التيار للاتحاد السوفيتى فقد رأوا أن جوهر الصراع معه يكمن فى هيكل نظامه وسياساته ، وعلى هذا فقد تصوروا أن هذا الصراع لا يحل بمجرد تطويع النظام Mellowing وإنما سوف ينتهى بموت أحد النظامين وتحوله.

وهكذا جاء ريجان إلى الحكم بتصميم على تبنى موقف أكثر قوة وجرأة لكى يوقف ما رآه اضمحلالا أمريكيا رده إلى السياسات التى اتبعت خلال السبعينيات، وهى الحقبة التى رآها فترة تدهور لا تبعث على الأمن والاطمئنان داخليا ودوليا ومعنويا واقتصاديا ورأى أن مصدر المشكلة هى

القيادة الضعيفة خاصة فى فترة كارتر وليس نتيجة ضعف كامن فى أمريكا التى مازالت عنده تحتفظ بالقدرة على أن تظل الأمة المسيطرة فى العالم، ولكنها تحتاج إلى الرجوع إلى القيم التقليدية التى تلهمها قيادات قوية توقف الاتجاه نحو الاضمحلال : فعلى المستوى الاقتصادى كان تشخيص الادارة الجديدة للتراجع الأمريكى هو أن الولايات المتحدة قد فقدت الأمل بجذور ديناميكيتها التاريخية وهى قوة السوق الحر وقوة توليد الثروة ، كما أشاروا إلى أن ثمة بعدا معنويا فى هذا التراجع الاقتصادى حيث خلقت سياسات الرفاهية الاجتماعية وبرامجها ما أصبح يعرف بحضارة التوكل Culture of Dependemce والتى جعلت القادرين على تحمل المسئولية يعتمدون فى احتياجاتهم واحتياجات عائلاتهم على الدولة كى ترعاهم منذ المولد وحتى وفاتهم . وقد صاحب هذه الإدانة الشاملة لأمراض أمريكا الداخلية إدانة لسياستها على المستوى الدولى وهنا أيضا رآها ريجان وفكره المحافظ تفقد الصلة بمصادرها الحقيقية التى مازالت صادقة كما كانت دائما ، وعنده فإن النضال الكبير فى العالم المعاصر

هو بين الحرية والعبودية . وفى هذا النضال كانت أمريكا الحاملة لمشعل الحرية بينما الشيوعية وبالتحديد الاتحاد السوفيتى هو تجسيد للعبودية .

ووضوح هذا التقسيم - عند الفكر المحافظ - كان يجب أن يعطى الولايات المتحدة ثقة أعظم في دورها على المسرح العالمى ولكن فى السنوات الأخيرة فقدت أمريكا ثقتها وكان هذا نتيجة عقدة ذنب ذكاها الليبراليون والتى ألقت الشك على أمريكا كمدافعة عن الحرية ومازاد الأمر تعقيدا عند أصحاب هذا الفكر أنه فى فترة ما بعد الحرب الفيتنامية كانت هذه العقدة المعذبة بعقدة الذنب قد عبرت عن نفسها فى التحيز ضد العسكرية وإلى خفض الانفاق العسكرى وتوجيهه للانفاق على البرامج الاجتماعَية، كل هذا كان يحدث فى الوقت الذى كان فيه الاتحاد السوفيتى لا تشغله عقدة الذنب وإنما يشغله البناء العسكرى الشامل ، وهكذا استخلص ريجان ومدرسة المحافظين الجدد التى حملته إلى الحكم أن الدفاع القوى هو الشرط الرئيسى للقوة الأمريكية والمكانة الأمريكية وأنه إذا أريد وقف تراجع وضع أمريكا الدولى

ومواجهة القوة السوفيتية واتجاهها المتوسع فإن القوة والبناء العسكرى الأمريكى يجب أن يكون له الأولوية المطلقة . ونتيجة لهذا التحليل كان البعد العسكرى والاستراتيچى فى العلاقة مع الاتحاد السوفيتى هو وضع تركيز الادارة الجديدة والفكر المحافظ الذى صاحبها من حيث تصورهم أن أمن ومكانة الولايات المتحدة لا تتحقق إلا بالتفوق العسكرى ، وأن اتفاقات الحد من التسلح لم يستفد منها إلا الاتحاد السوفيتى وأنه حتى لو قبلت الولايات المتحدة أن تتفاوض، فيجب أن لا تقدم عليه إلا بعد بناء قوتها العسكرية . وتقدم نظرة ريجان لقوى الولايات المتحدة العسكرية حين جاء للسلطة تفسيرا لما سيقدم عليه من برامج للبناء العسكرى سيعتبر أكبر ما أقدمت عليه إدارة أمريكية فى زمن السلم ، وقد استمر هذا التصور لما تتعرض له الولايات المتحدة من تهديد عسكرى سوفيتى وتناقص القدرة العسكرية الأمريكية مقابل توسعها على الجانب السوفيتى ، فقد صدرت عام ١٩٨٣ وثيقة دفاعية تصف القدرة العسكرية الأمريكية وما تمثله من تهديدات للولايات المتحدة «أن الولايات المتحدة تواجه فى الثمانينيات

تحديات خطيرة لأمنها القومي، فقد تآكلت مناطق تقليدية للتفوق الأمريكى على الاتحاد السوفيتى بسبب البناء العسكرى السوفييتى الشامل للقوة العسكرية والذى لم يقابل بشكل كاف في الولايات المتحدة وحلفائها وزيادة على ذلك فقد شجع الأتحاد السوفيتى حروب التحرير الوطنى وسوف يستمر فى هذا وهكذا أصبح السوفييت يفرضون تهديدا خطيرا للولايات المتحدة وحلفائها ومصالحها على كل مستويات الصراع وعلى نطاق واسع ».

وهكذا مثلت فلسفة ريجان حول مضمون وأسلوب إدارته للعلاقة مع السوفييت وتركيزه على الطابع الصراعى والمواجهة تحولا أساسيا عن السياسة الخارجية للحقبة الماضية بحيث أدار الرؤساء الثلاث : نيكسون ، وفورد ، وكارتر، حتى نهاية السنة الثالثة من ادارته ، السياسة الخارجية وصلاته مع الاتحاد السوفيتى بشكل حاولوا فيه التكيف مع ضرورات عالم متغير، واتبع ثلاثتهم دبلوماسية نشطة لتعويض تعدد القوى الدولية التى أصبحت واضحة بشكل كبير فى نهاية الستينيات، أما رونالد ريجان

فقد جاء ليقلب هذا المنطق وعنده لم تكن الولايات المتحدة هى المطالبة أو المسئولة عن التكيف مع العالم ، إن أمريكا القوية الواثقة من نفسها يمكن أن تجعل العالم يتكيف معها .

بهذا التصور عن الولايات المتحدة صورتها الراهنة وما يجب أن تكون عليه ، وعن الاتحاد السوفيتى وطبيعة نظامه وكيف يمكن التعامل معه جاء رونالد ريجان للحكم فى يناير ١٩٨٢ لكى يمثل واحدا من أكثر الرؤساء الذين عرفتهم أمريكا محافظة وأقلهم استعداداً للمساومة مع الاتحاد السوفيتى ، وكان لماله من مغزى حول اتجاه سياسته الخارجية خاصة تجاه الاتحاد السوفيتى اختياره الكسندر هيج وزيرا للخارجية وقد اختاره اساسا لمواقفه المعارضة لاتفاقيات الحد من التسلح مع السوفيت وانتقاده لها ، وقد بدأ الكسندر هيج سياسته بالاعلان عن أنه ليس هناك شئ جوهرى يمكن التحدث عنه مع السوفيت ولا شئ .. يمكن التفاوض حوله حتى يبدأ السوفيت اثبات استعدادهم كقوة مسئولة كما ذهب إلى القول « ... أن اشاراتنا للسوفييت

يجب أن تكون تحذيرا واضحا أن وقت مغامراتهم التى لايتحكم فيها شئ فى العالم الثالث قد انتهى وأن قدرة الولايات المتحدة على أن تتسامح مع تصرفات عملائهم فى كوبا وليبيا قد تجاوزت حدودها» . وقد صنع هذا التوجه ووجه ممارسات الادارة الامريكية الجديدة إزاء الاتحاد السوفيتى سواء تلك المتصلة بالعلاقة المباشرة أو فى المناطق والمجالات التى تتأثر فيها علاقات القوتين وتتداخل ولكن على الوجه التالى :

١ - ففى مجال بناء القوة العسكرية شرعت الادارة فى تقوية نظمها الدفاعية وأصرت على مستوى من الانفاق يواجه متطلبات مستويات عالية التقدم على أساس أن هذا يخدم الموقف الأمريكى والغرب فى أى مفاوضات مع الاتحاد السوفيتى بمستوياتها المختلفة . بل أن بدأت تتردد فى أرجاء الادارة أفكار حول الحرب النووية المحدودة اعتقادا أنها أصبحت أكثر احتمالا من صراع إقليمى محدود يتضمن استخدام القوى النووية والتقليدية ، وتصورت هذه الأفكار أن هذه الحرب يمكن شنها إذا ما أعد لها بشكل دقيق واستراتيجية فعالة .

٢ - كما تبنت الادارة مفهوم أن التعاون الاقتصادى والتكنولوجى مع السوفييت سوف ينتهى بدعم قدرتهم العسكرية لذلك اتجهت إلى فرض حظر على الشركات الأمريكية والأوروبية التى تساهم فى بناء خط أنابيب غاز سيبيريا الأمر الذى لم يتقبله الأوروبيون وخلق ظلالا على العلاقات الأمريكية الأوروبية.

٣ - فى مجال حقوق الانسان بدأت الادارة عهدها برفض مفهوم ادارة كارتر لهذا الموضوع ومعلنة أن أمريكا لاتستطيع أن تعادى أصدقاءها وشركاءها فى العالم الثالث لما لهم من أهمية فى الصراع ضد الشيوعية.

٤ - وارتباطا بمفهومها حول العالم الثالث ، والذى لم تر فيه الادارة إلا أرضا للصراع بين الشرق والغرب ، فقد انعكس هذا على تصورها للأمم المتحدة والمنظمات الدولية باعتبار أغلبية دول العالم الثالث بها واستخدامها هذه المنظمات للتهجم على الولايات المتحدة.

ولم تقتصر الممارسات الامريكية فى هذه المرحلة على الجوانب المتصلة مباشرة بالعلاقات الأمريكية السوفيتية وإنما

امتدت أيضا إلى المناطق التى تدخل فى سياق التنافس بين القوتين وشملت مختلف مناطق العالم التى تتداخل فيها علاقاتهما : -

١ - ففى منطقة الشرق الأوسط ركزت الولايات المتحدة على التعامل مع مشكلاتها من منظور المواجهة مع الاتحاد السوفيتى ، وكان هذا هو أساس المفهوم الذى صاغه الكسندر - هيج حول «التوافق الاستراتيجى» Stratigic Consensus الذى دعا دول المنطقة أن تتبناه واعتمد هذا المفهوم على أن ما يهدد نظام الأمن الإقليمى فى الشرق الأوسط ليس النزاعات المحلية فيه وإنما الاخطار الخارجية التى تتهدده وفى مركزها الخطر السوفييتى ، وحيث لم تظهر الأقطار العربية كما كان متوقعا تقبلا لهذا المفهوم ، اتجه هيج إلى تحقيقه فى علاقته الأمريكية الإسرائيلية بتوقيع مذكرة تفاهم استراتيجى nemovundum of undevstanding مع اسرائيل فى ديسمبر ١٩٨١ .

٢ - وفى منطقة إقليمية حساسة أخرى هى منطقة الكاريبى لم يشغل هيج نفسه بتحليل الأوضاع السياسية

الداخلية لدول هذه المنطقة وإنما ركز على المطالبة بأن يضغط الاتحاد السوفيتى على كوبا التى اعتبرها مسئولة عن اضطراب الوضع فى هذه المنطقة وإلا فإن الولايات المتحدة يجب أن تستخدم قوتها الاقتصادية ونفوذها السياسى مع واقع قوتها العسكرية لكى تضغط على كوبا ولكى تعالج الوضع فى منبعه Returm toThe Source .

٣ - وفى العلاقة مع الصين الشعبية اتجه ريجان مع بدايات حكمه واتساقا مع ما جاء به من عدم التضحية بالأصدقاء إلى تزويد تايوان بالأسلحة الأمر الذى هدد العلاقة الأمريكية مع بكين.

غير أن ما هو مهم فى هذه المرحلة هو التأكيد على مفهوم إدارة ريجان الاستراتيجى ومحدداته وأهدافه البعيدة وهو المفهوم الذى سوف - يبرزه ويباهى به أيضا - أنصار ريجان بعد اختفاء الاتحاد السوفيتى ، فى هذا الخصوص اعتبر هنرى كينسجر أن استراتيجية ريجان كانت تستند على اقتناع بأن الشيوعية يمكن هزيمتها وتدميرها لا مجرد احتوائها أو اصلاحها وكان ذلك يرتبط برؤية وتحليل واقع

وعناصر الضعف فى الكيان السوفيتى ، ويستدلون على ذلك بخطاب ألقاه ريجان فى البرلمان البريطانى فى يونيو ١٩٨٢ يقول فيه محللا التناقض القائم فى الواقع السوفيتى ودلالاته «.. بمعنى ساخر كان ماركس على حق .. إننا نشاهد الآن أزمة ثورية عظيمة تتصارع فيها متطلبات النظام الاقتصادى بشكل مباشر مع متطلبات النظام السياسى غير أن هذه الأزمة لاتجرى فى الغرب غير الماركسى ، ولكن فى بيت ماركس ولينين فى الاتحاد السوفيتى .. وعام بعد عام كان الاتحاد السوفيتى يبدد أفضل مصادره فى صنع أدوات الدمار ويفرض الانكماش المستمر للنمو الاقتصادى مع تزايد الانتاج الحربى عبئا على الشعب السوفيتى إن ما نشاهده هو كيان سياسى لم يعد يتماشى مع قاعدته الاقتصادية ، ومع مجتمع تعيق القوى السياسية قواه الانتاجية»

غير أن إدارة ريجان ما لبثت أن تبينت أن هذه الممارسات المتشددة لم تحقق تقدما يذكر فى مسائل السياسة الخارجية بل على العكس هددت عددا من الانجازات التى حققتها ادارات سابقة مثل التقارب مع الصين كما خلفت توترات فى

العلاقة مع الحلفاء الأطلنطيين ، وفي الشرق الأوسط الذى تصاعد فيه الصراع وستؤثر احتمالات التورط الامريكى فيه نتيجة للغزو الاسرائيلى للبنان الذى نشأ الاعتقاد بأن سياسات هيج فى التركيز على التحالف مع اسرائيل قد شجعت عليه .

لذلك ظهرت الحاجة لا إلى التخلى عن المرتكزات الرئيسية لفكر وسياسة الادارة وإنما لإيجاد عنصر توازن فى توجهاتها وممارساتها ، وكان من مقدمات ذلك تعيين جورج شولتز وزير الخارجية يونيو عام ١٩٨٢ وبدأت فى الظهور اتجاهات تغير ملحوظ فى الأسلوب وإلى حد ما فى المضمون ولم يكن ذلك يعنى انفصال الرئيس الامريكى عن نظرته العاطفية التى تجد جذورها فى غريزته السياسية والأيديولوجية ، وإنما لتعرضه لحقائق العالم واكتسابه للخبرة العملية بشئونه ، وهى الخبرة التى أظهرت له الحاجة إلى قدر من المرونة والواقعية الأمر الذى أظهر معه ريجان قابلية واستعدادا للتغير والاستجابة للمتغيرات الدولية الجديدة ، كذلك ساهم فى تعزيز هذا الاتجاه مجيئ چورچ شولتز وزيرا

للخارجية ولم يكن ذلك لأنه كان يختلف عن الكسندر هيج فى توجهاته الأساسية ولكن لنمط شخصيته وخصائصها واسلوبه الهادئ وتحرره من الطموح السياسى وإدراكه للطابع المعقد للقضايا والاستعداد للحلول الوسط وأكثر من هذا قدراته على بناء علاقات عمل متناسقة مع شخصيات الادارة والعمل بروح الفريق . لذلك بدأ المراقبون يرصدون محاولات لادخال عناصر جديدة من المرونة فى سياسات الادارة والتى بدت فى :

أ - إعطاء قدر أكبر من الاهتمام لمحادثات الحد من التسلح والتقدم بمقترحات أكثر مرونة .

ب - رفع الحظر عن الشركات الأوروبية التى تبيع التكنولوجيا إلى مشروع غاز سيبيريا .

جـ - إعادة النظر فى بيع أسلحة لتايوان والتوصل إلى اتفاق مع الصين حول ذلك .

د - التحرك فى قضية الشرق الأوسط وصدور مبادرة ريجان أول سبتمبر ١٩٨٢ .

غير أن عنصر التوازن الذى بدأ يبدو فى السياسة الأمريكية ما لبث أن تراجع بفضل ثلاث تطورات رئيسية :

أ – الإعلان عن «مبادرة الدفاع الاستراتيجى»
Stratigic Defense Jniative SDi
والتى رآها ريجان أنها ستجعل الأسلحة النووية عديمة القيمة وبالية impotent and opsolete رآها الاتحاد السوفيتى أنها تصعيد لسباق التسلح ونقلة للفضاء ووسيلة للتفوق الأمريكى .

جـ – اسقاط الاتحاد السوفيتى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٨٣ لطائرة تابعة للخطوط الجوية الكورية فوق الأرض السوفيتية واتهامها بأعمال التجسس وراح ضحيتها ٢٧٩ شخصا من بينهم أمريكيون وذهب الرئيس الأمريكى إلى القول «بأن السوفيت أثبتوا أنهم غير مؤهلين لأن يكونوا أعضاء فى الاسرة الدولية» .

ج ـ فشل التوصل إلى اتفاق حول الصواريخ متوسطة المدى فى أوروبا والذى بدأ معه تنفيذ دول الناتو قرارها نشر الصواريخ الأمريكية الأمر الذى رد عليه الاتحاد السوفيتى بالانسحاب فى ديسمبر ١٩٨٣ ، وبعد فشل المفاوضات من جميع مفاوضات الحد من التسلح وبكل مستوياتها ، وهكذا ،

اكتملت حلقات التراجع والتدهور فى العلاقات الأمريكية السوفيتية على كافة الجبهات وفى أخطر مجالاتها وهو مجال التسلح الاستراتيچى الأمر الذى أعاد إلى الأذهان مرحلة الحرب الباردة بأزماتها وأخطارها وجعلهم يصفونها بالحرب الباردة الجديدة .

وقد كان من الطبيعى أن تولد هذه الحالة المتدهورة مخاوف لدى الرأى العام الأمريكى ولدى الحلفاء الأوربيين ، قد توافق هذا مع انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٤ حيث كادت قضية الأمن الدولى تسيطر على مناقشاتها واستخدمها الحزب الديمقراطى للهجوم على ريجان وإدارته مركزين على أن ريجان هو الرئيس الأمريكى الوحيد بعد الحرب الثانية ، الذى لم يجتمع مع القيادة السوفيتية . بفعل هذا كله بدأت الادارة تبدى اشارات تصالحية تجاه السوفيت وتدعو إلى أن الوقت قد حان لوقف التدهور فى العلاقات والبدء فى بناء علاقات جديدة وأكثر إيجابية وواقع أن هذا لم يكن فحسب بفعل المخاوف التى ثارت وإنما لأن الادارة الامريكية اعتبرت أن شروطها للدخول من محادثات جادة مع

السوفيت قد تحققت «باستعادة الاقتصاد الأمريكى لقوته وإعادة بناء القوة العسكرية الأمريكية» . وعلى المستوى السوفييتى توافق ذلك مع وفاة يورى اندربوف وفترة حكمه القصيرة ١٩٨٢ - ١٩٨٤ وكانت تجربته مع الولايات المتحدة قد أوصلته إلى الاعتقاد «أنه إذا كان لدى أى فرد أوهام حول إمكانية تطور إلى الأحسن فى سياسة الادارة الحالية وأن مثل هذه الأوهام قد تبددت تماما» . وقد خلفه ميخائيل شرننكو الذى يذكر لعهده القصير ١٩٨٤ - ١٩٨٥ عودة الاتحاد السوفييتى إلا محادثات خفض التسلح ، ووسط هذا الاتجاه لإحياء محادثات خفض التسلح واحتمال إعادة بناء العلاقات الأمريكية السوفيتية ووقف التدهور فيها حدث تطور داخلى بالغ الأثر فى الاتحاد السوفيتى حيث تولى زعيم سوفيتى جديد - ٥٤ عاما عندئذ - هو ميخائيل جورباتشوف فى مارس ١٩٨٥ ، ورغم اعتبار الادارة الأمريكية لهذا التطور أحد العناصر الجديدة المهمة لتحقيق تقدم شامل إلا أنها أخذت موقف الترقب الشامل لما ستتطور إليه زعامة جورباتشوف وهى الزعامة التى ستبدأ وتطور عملية إعادة

فحص شامل للقواعد والأسس السياسية والاقتصادية والأيديولوچية للنظام السوفيتى كما ستعيد النظر فى أسس ومحددات السياسة الخارجية السوفيتية والمبادىء التى ارتكزت عليها طوال العهد السوفيتى ، هذا التطور هو الذى سيفتح الباب وسيضعنا أمام مفارقة أن الرئيس الأمريكى الذى شن أعنف هجوم على الاتحاد السوفيتى ووصفه «بامبراطورية الشر» The Evil Empire . ونصح من يريد التعامل مع قادته بأن يفعل ذلك على أساس أنهم «قوم لايتورعون عن الكذب والخداع والغش فى سبيل تحقيق أهدافهم » هذا الرئيس الامريكى هو الذى سيعقد مع الاتحاد السوفيتى وقيادته الجديدة أربعة مؤتمرات قمة وأقام إطارا للعلاقات يستبعد المواجهة ويتجه إلى التعاون وهو التطور الذى انتهى بتفكك الاتحاد السوفيتى ونهاية الحرب الباردة . هذا التطور هو الذى سيظل يثير لدى المؤرخين سؤالا جوهريا عما إذا كان رونالد ريجان بسياسته التى اتبعها تجاه السوفييت قد هدفت فى المقام الأول إلى إحداث هذا التطور ووفق تصميم مسبق ، وعن حجم ودور ريجان وادارته فى

تحقيقه . بطبيعة الحال فإن ريجان وشخصيات ادارته والتيار الفكرى الذى لازمه ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم القوة الدافعة وراء هذا التحول وأن سياستهم التى اتبعوها تجاه الاتحاد السوفييتى على المستوى الأيديولوجى والعسكرى بتصميمهم على بناء القوة العسكرية الأمريكية وعدم التفاوض إلاَّ من مركز القوة وتصديهم للسياسات السوفيتية فى المناطق الإقليمية كانت من العوامل الحاسمة وراء التحول فى التفكير السوفيتى ومراجعته للسياسات التقليدية وقد بلور رونالد ريجان هذا التفكير فى خطبة الوداع التى ألقاها مع نهاية ادارته حين قال «لقد كنا نهدف إلى تغيير الأمة وبدلا من ذلك غيرنا العالم» .

وهكذا شهدنا أن سنوات إدارة ريجان للولايات المتحدة قد شهدت وانتهت بتحولات نوعية عميقة له ليس فقط فى العلاقات مع الاتحاد السوفيتى وإنما فى مجمل النظام الدولى وطبيعته ، وكان من الطبيعى أن يعتبر انصار مدرسة ريجان Reagan Victory school أنهم المسئولون عن هذا التحول وأن حملة ريجان الأيديولوجية ضد الاتحاد السوفييتى وقادته قد أنزلت ضربة الموت بالنظام السوفييتى وأن الحرب الباردة

قد كسبت نتيجة للمواقف الأيديولوجية التى لا تنازل فيها والتأكيد على تفوق الغرب وقيمه والانكار الكامل لأية شرعية أخلاقية للنظام السوفييتى وأنه وراء هذا التفكير كانت تكمن فلسفة أيديولوجية عميقة للتاريخ والسياسة وفهم للسياسة باعتبارها حربا بين الأفكار ، والاعتقاد - مثلما اعتقد لينين ، أن الأفكار أكثر قوة من المدافع ، وقد جعل هذا التفكير ، الذى وجه أنصار مدرسة ريجان ، ينتقدون أصحاب مدرسة الواقعية السياسية Realpolitik من أمثال چورچ كينان وولتر ليمان ومورجانثو وكينسجر باعتبار أن أفكارهم تمثل سوء فهم للاتحاد السوفيتى كما رآوا فى برامج كينسجر للوفاق بين الشرق والغرب مساومة أخلاقية بما كان يعنى نزعا منفردا للتسلح الأيديولوجى .

وعلى المستوى العسكرى فقد اعتبر أنصار مدرسة ريجان أن المواجهة العسكرية والإصرار على البناء العسكرى وخاصة برنامج الدفاع الاستراتيچى كان مقدمة ضرورية لما تلا ذلك من سلام ووفاق ، فعندهم فإن الاتحاد السوفيتى وقادته لم يحترموا إلا القوة ، وأن إعادة تسليح أمريكا كان

ضرورة لإقناعهم أن الغرب لم يكن فى مرحلة تدهور أو ضعف وأنه مازال مستعدا لبذل التضحيات المطلوبة لضمان الصمود ضد أى تهديد وضغط سوڤيتى . وتلخص مدرسة ريجان رأيها فى تأثير البناء العسكرى الأمريكى وبشكل خاص مبادرة الدفاع الاستراتيجى على التطورات السوڤيتية بالقول بأنه قد وضع الاتحاد السوفيتى أمام مأزق وخيارين كلاهما صعب : أما مجاراة البناء العسكرى الامريكى إلى حد الافلاس أو عدم مجاراته وبذلك يكون الاتحاد السوفيتى قد فقد ادعاءه الوحيد الذى يجعل منه قوة أعظم وهى القوة العسكرية ، بل إنهم قد ذهبوا إلى أن عملية البناء العسكرى الأمريكى التى تولتها إدارة ريجان كانت هى العامل المساعد Catalyst الذى حرك وأعطى بعدا جديداً للنقاش الذى كان قد ظهر حتى فى عهد برچنيف فى المعاهد ومراكز البحث بل والمؤسسات العسكرية والعالمية بأن الاتحاد السوڤيتى مهدد بأن يصبح من مناطق العالم الثالث اقتصاديا واجتماعيا وهو المفهوم الذى جرت مناقشته علنا بعد مجئ جورباتشوف.

تلك كانت دعاوى مدرسة ريجان التى نسبت إلى سياستها فى الضغط العسكرى والسياسى والأيديولوجى على الاتحاد السوفيتى الفضل فى انهاء الحرب الباردة بالشكل الذى انتهت به وفى غلق الخيارات أمام قادته والاختيار التخلى عن سياساته التقليدية فى الخارج والداخل غير أن ادعاءات أنصار مدرسة ريجان تلك قوبلت بالتشكيك والتفنيد من العديد من المحللين والباحثين الأمريكيين الذين اعتبروا أن القول بأن سياسات ريجان كانت هى السبب فيما حدث هو قول مضلل وغير دقيق سواء فى تفسير أحداث الثمانينات أو فى الفهم الأعمق للقوى التى أدت إلى إنهاء الحرب الباردة.

ويستند من يعترضون على تفسيرات مدرسة ريجان إلى أنه بشكل عام فإن التحولات السياسية والتاريخية الكبرى من الصعب أن تكون نتاج قوة واحدة حتى لو كانت قوة عظمى ، وإنما هى محصلة تفاعل عدد من العوامل والتطورات التى تحدث عادة على جانبى الصراع وإن كانت بنسب متفاوتة ، وعندهم فإن الحرب الباردة قد انتهت أساسا بسبب فشل النظام السوفييتى ذاته وإن كانت القوى الخارجية قد

أسرعت به وكشفت من أزمته ، ويفصلون هذا بالقول أن المشكلة الرئيسية للنظام السوفيتى كانت فى فشله فى تقديم مستوى مقبول للمعيشة للشعب السوفيتى وفى عدم صلاحية وكفاءة النظام الاقتصادى ولكن العبء العسكرى كان عاملا مساهما فى الفشل الاقتصادى والى الحد الذى كان فيه الانفاق العسكرى السوفيتى هو استجابة للمستويات الغربية فى التسلح فإن عملية البناء العسكرى الأمريكى فى الثمانينات كانت كالقشة التى قصمت ظهر البعير ، وإذا كانت السياسة الأمريكية فى عهد ريجان بهذا المعنى قد أسرعت بالانهيار السوفيتى فإن ذلك لم يكن إلا عاملا مساعدا .

أما على المستوى الأيديولوجى كان معارضى مدرسة ريجان يعتبرون أنه وإن كانت نهاية الحرب الباردة قد سجلت انتصاراً للايديولوچية المتشددة لريجان واليمين الأمريكى المتشدد ، فالشرعية الأيديولوجية للنظام السوفيتى قد انهارت ليس بسبب هذه البيانات المتشددة ولكن بسبب إغراء النموذج الغربى المادى والثقافى وتقويضه للتفسير السوفيتى للحضارة الغربية التى أغوت عناصرها مجتمعات العالم

الشيوعى بشكل أكثر فعالية من أى هجوم إيديولوجى معاد للشيوعية .

وقد عالج المؤرخ الدبلوماسى الامريكى چورچ كينان إدعاء إدارة ريجان بشكل أوسع حين قال : « .. إن الادعاء بأن أى حكومة أمريكية لديها قوة للتأثير بشكل حاسم على مجرى الغليان الداخلى فى بلد كبير آخر هو ببساطة ادعاء طفولى .. إن أى قوة عظمى ليس لديها مثل هذا النفوذ على التطورات الداخلية لقوة أخرى .. » واتساقا مع موقفه التقليدى الناقد لتركيز الولايات المتحدة على الأمور العسكرية فى التعامل مع الاتحاد السوفيتى فقد أنكر كينان أن يكون البناء العسكرى الامريكى خلال الثمانينات له تأثير كبير على المتغيرات التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى بل أنه إذا كان هذا البناء قد ساهم في شيء فهو تقوية أيدى المتشددين فى الكرملين الذين عارضوا التغيرات التى كان جورباتشوف يحاول إدخالها ، وذهب كينان أن تطويع النظام السوفيتى ، بالمعنى الشهير الذى استخدمه فى مقالته الشهيرة فى أوائل بدايات الحرب الباردة Mellowing ، كان فى المقام الأول نتيجة قوى تفاعلت داخل المجتمع السوفيتى وكانت أهم هذه القوى فى رأيه هو فقدان الشعب السوفيتى للوهم حول النظام الشيوعى

وفشله فى تقديم المزايا المادية والتى وعد بها وعدم رضا الأقليات الإثنية فى خضوعها للأغلبية الروسية وتزايد وعى الشعب السوفيتى بالظروف خارج بلاده والفجوة التى تفصله عن الأمم المتقدمة فى الغرب ، كل هذه الأوضاع هى التى جعلت جورباتشوف يعتقد أن اصلاحا جذريا فقط هو الذى يحول دون سقوط الاتحاد السوفيتى .

غير أنه رغم هذا التفنيد لادعاءات أنصار ريجان وإدارته حول دورها فى «تغيير العالم» ، كان بعض من الباحثين ، حتى من لم يقبلوا كلية ادعاءات مدرسة ريجان ، قد نسبوا بعض الفضل لريجان فى تعامله مع جورباتشوف واستجابته لما جاء به واستعداده لمقابلته عام ١٩٨٥ وسلوكه الودى تجاهه مما خفف من المخاوف السوفيتية التى كانت قد تراكمت تجاه ريجان منذ مجيئه إلى الحكم ، وبعد قمة چنيف عام ١٩٨٥ نجح ريجان فى استخلاص النتائج التى خالفت قطاعات لا يستهان بها من المحافظين الذين كانوا مازالوا مترددين تجاه جورباتشوف وسياساته الجديدة ، وهى النتائج التى ثبت بعد ذلك صحتها ، وثمة من اعتقد أنه إذا كان ريجان ظل متمسكا بمعتقداته القديمة حول الاتحاد

السوفيتى، وحول الشيوعيين وقادتها ، فربما كانت الحرب الباردة قد استمرت ، وقد دفعت هذه النظرة بعض مؤرخى ريجان إلى القول بأنه رغم أنه كان أكثر الرؤساء الامريكيين أيديولوچية منذ ويدرو ويلسون ، إلا أنه كان الرئيس الوحيد الذى نضج فى أسلوبه وهو النضج الذى بدا فى هذا التحول السياسى ، وينسب بعض المحللين الفضل فى هذا إلى وزير خارجيته چورچ شولتز ، فضلا عن خصائصه الشخصية التى أدخلت الهدوء وخففت الاندفاع الأيدلوچى الذى جاءت به الادارة إلى الحكم ، فقد كان مجيئه إلى الإدارة فى الوقت المناسب ومع مفترق طرق فى الحرب الباردة وحيث رأى ما لم يستطع غيره أن يراه وهو أن الاتحاد السوفيتى يمر بتغيرات ضخمة وعميقة ، كما لم يتأثر تفكيره بعقائد ومفاهيم الحرب الباردة والعداء للشيوعية ، وفى الوقت الذى ظل بعض مستشارى ريجان والمحيطين به فى الادارة ينظرون فى الماضى ويستقرئون دلالاته رغم كل ما كان يبدو من تغيرات ، كان شولتز يتطلع إلى المستقبل ويتعامل مع معطيات واقع جديد .

الفصل الثالث

لماذا الترويج؟

فى ليلة ٢٨ أغسطس عام ١٩٩٣ دعانى وزير الخارجية النرويجى يوهان هولست على العشاء وكانت المناسبة زيارة وزير خارجية إسرائيل شيمون بيريز ، ولاحظت أننى السفير الأجنبى الوحيد المدعو فى هذه المناسبة . وخلال العشاء تبادل الوزيران الكلمات وكانت توحى بالتوقع والتفاؤل وتتحدث عن الصراع العربى - الاسرائيلى وعن ما تحمله الشعبان والحروب التى اشتعلت فى المنطقة وأنه قد آن الأوان لمصالحة تاريخية بين الشعبين . وبعد العشاء طلب منى شيمون بيريز أن أبلغ وزير الخارجية عمرو موسى «أننا نسير فى الطريق الصحيح» we are on the right track وفى اليوم التالى سافرت إلي مدينة بيرجن ، ثانى المدن النرويجية، لزيارة جامعاتها والتعرف على أقسامها واساتذتها ومحاولة بناء علاقات تعاون مع الجامعات المصرية . وفى المساء كنت فى الفندق أدير مؤشر التليفزيون لكى أجد وزير الخارجية النرويجي هولست وبجانبه عدد من مساعديه يعلن عن توصل إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى «إعلان مبادئ» Declanation of principles .

قال إنه سيحول علاقة الخصومة التاريخية بينهما إلى محاولة للتفاهم والتعايش والتعاون . وقد اتصلت بزملائى فى السفارة حيث تأكدت أنهم قد بعثوا إلى الوزارة فى القاهرة بما صدر من بيانات وتعليقات . واقتصرت زيارتى لبيرجن لكى أعود إلى أوسلو لأجد الإعلان عن الاتفاق وهو حديث الجميع بل وحديث العالم . لم يكن الإعلان عن الاتفاق هو المفاجأة الوحيدة ، بل كان ثمة مفاجأة أخرى هو إعلان أن الاتفاق قد تم نتيجة ٩ شهور من المفاوضات بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية وأن هذا قد تم فى النرويج وبرعاية وترتيب منها . ولعل من اعتبروا ذلك مفاجأة غير متوقعة كانوا على حق ، فصورة النرويج التى ترتبط بالأذهان هى صورة البلد ، القصى فى الشمال الأوروبى إذا ذكرت اقترنت بصيد الاسماك وبالخلجان والشتاء القارس البرودة ، وعند البعض بأقوام الفايكنج ومغامراتهم في المحيطات وقسوتهم على أنفسهم وعلى الغير ، وعند القلة عرفت النرويج بأنها بلد عملاق المسرح هنريك إبسن وأعماله المعروفة : «لعبة البيت» ، «البطة البرية» ، و«أعمدة المجتمع» ، أما بالنسبة لقلة

قليلة فصورة النرويج لديها تتعلق باهتماماتها ومشاركتها فى عمليات حفظ السلام Peace Keeping وذلك منذ إنشاء منظمة الأمم المتحدة ، وأن أول سكرتير عام للأمم المتحدة لى ترجفيلى - كان نرويجيا . وهكذا كانت هذه صورة النرويج البلد البعيد الصغير المسالم ومن ثم ليست الدولة المستعدة لأن ترتبط أو تزج بنفسها فى أزمات إقليمية أو دولية خاصة إذا كانت فى مناطق بعيدة عنها مثل الشرق الأوسط وفى نزاعات بالغة التعقيد مثل النزاع الفلسطينى الإسرائيلى .

غير أن الأمر قد يختلف عند هؤلاء الذين كانوا يتابعون عن قرب سياسة النرويج خاصة على مدى العقد الماضى وعناصر تطورها داخليا تجاه القضية الفلسطينية بوجه خاص والشخصيات والأحداث التى ساهمت فى ذلك وأيضا طموحات نخبة سياسية نرويجية ، خاصة من حزب العمل النرويجى ، حول دور أكثر نشاطا وفعالية للسياسة الخارجية النرويجية ليس فقط فى نطاقها النوروجى المباشر بل وفى الدوائر الدولية الأوسع . عند هؤلاء ربما لم يكن الدور النرويجى فى ترتيب ورعاية المفاوضات مفاجأة تامة ، فربما

كان أمرا متوقعا ومتسقا مع العديد من الظواهر والاهتمامات والنشاطات الميدانية لمؤسسات ومراكز نرويجية وأكثر من هذا مع الأدوار والمبادرات النشطة فى حقل السياسة لخارجية التى تصورتها النخبة الحاكمة وقتئذ لبلادها ولعل تفصيل هذه الاعتبارات يفسر ويجيب على السؤال الذى تردد بعد الإعلان عن الدور النرويجى فى التوصل إلى إعلان المبادئ :

لماذا النرويج ؟

بداءة فقد ظل موقف النرويج متعاطفا مع إسرائيل وغير متفهم لأبعاد المأساة والمعاناة الفلسطينية ، ربما لأن النرويج قد رأت فى إسرائيل دولة صغيرة مثلها ، وربما بسبب معاناة النرويج واليهود من النازية ، غير أن الصورة بدأت تتحرك نحو فهم أقرب من النرويج لمعاناة الشعب الفلسطينى والسلوك الإسرائيلى فى المنطقة وهو الاقتراب الذى مس مناطق اهتمام رئيسية لدى الشعب النرويجى مثل حقوق الإنسان . وربما كان من فتح الباب أمام هذا التفهم هو وزير الخارجية النرويجى الأسبق Knut Fryed Nlud . حين شجع اتحاد نقابات العمال النرويجى ، الذى يمارس دورا

اجتماعيا وسياسيا مؤثرا فى المجتمع والسياسة النرويجية ، على إقامة علاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية الأمر الذى عرضه لانتقادات حادة من القطاعات التى كانت مازالت تحصر نفسها فى التعاطف مع إسرائيل ، أما التطور الذى جلب صورة أوقع إلى المجتمع النرويجى عن الممارسات الاسرائيلية وبعنفها فقد كان الغزو الاسرائيلى للبنان وما صحبها من مذابح صابرا وشاتيلا وللصور التى ظلت القوة النرويجية فى قوات حفظ السلام الأمم المتحدة فى لبنان - يونو ڤيل - تنقلها إلى مجتمعها عن البشاعات الإسرائيلية الأمر الذى كون رأيا عاما ومن ثم سياسة على الأقل متوازنة بحيث لم تعد صورة التعاطف المطلق مع إسرائيل تطغى على المجتمع النرويجى والسياسة النرويجية . ولعل مشاركة النرويج فى قوات حفظ السلام في لبنان كانت أول قنوات الاتصال والتعارف الإنسانى والسياسى بين ياسر عرفات وبين شخصية نرويجية سيقدر لها أن تلعب دورا أساسيا فى الشئون الفلسطينية الإسرائيلية وهو يوهان هولجن هولست حيث كان موضعه وقتئذ وزيرا للدولة بوزارة الدفاع النرويجية

يزور لبنان بشكل منتظم لتفقد القوة النرويجية ضمن القوات الدولية . وقد يكون هذا هو السياق الذى نشير فيه إلى تطور اهتمامات يوهان هولست بمنطقة الشرق الأوسط بوجه عام ، فحين عمل فى الثمانينات وزيرا للدفاع كان يحرص على زيارة المنطقة بشكل منتظم وكان آخر زياراته لهذه المنطقة تلك التى جرت عام ١٩٨٨ وزار فيها مصر ، وفى محاضراته أمام أكاديمية ناصر العسكرية عالج وحلل الوضع فى المنطقة من منظور دولى واستراتيجى واسع ومن حيث مكان المنازعات الاقليمية فى المنافسة بين القوتين الأعظم وقتئذ .

وقد طور هولست اهتماماته بعد ذلك بالشرق الأوسط من خلال عمله كمدير للمعهد النرويجى للعلاقات الدولية Nupi ، ثم بعد توليه وزارة الدفاع فى نهاية عام ١٩٩٠ والذى توافق مع حرب الخليج وأتذكر أحاديثى معه خلال الحرب وتوقعات ما ستتركه فى البيئة الاقليمية من ندوب Scars وخاصة فى منطقة الخليج وتأثيراتها المتوقعة على نزاع الشرق الأوسط وهو التوقع الذى أكدته التطورات كما سنرى من دوافع تحريك العملية السلمية بين العرب والفلسطينيين والامريكيين .

ومن خلفيات ارتباط الدبلوماسية النرويجية ومساهمتها فى «تسهيل» العملية السياسية بين اسرائيل والفلسطينيين الدور الذى لعبه وزير الخارجية النرويجى الأسبق ستولتنبرج Thorvold Stolrenberg وهو وزميله السويدى ستين أندرسون Sten Anderson فى تشجيع منظمة التحرير الفلسطينية خلال اجتماعات المؤتمر الوطنى الفلسطينى فى الجزائر عام ١٩٨٨ على قرارها المشهور بقبول القرار ٢٤٢ ، ومساهمتهم فى اقناع الإدارة الأمريكية بفتح حوار مباشر بينها وبين منظمة التحرير الفلسطينية .

أما القناة النرويجية التى استخدمت هذا الرصيد النرويجى وبنت عليه وكان عملها على الأرض ومن خلال علاقات مهنية وإنسانية بنتها مع الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى هو أساس تحويلها إلى إدارة للتفاوض بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فقد كان المعهد النرويجى للبحوث الاجتماعية : The Norwegian Trade union Center for social science and Research . FAFO والتابع لاتحاد العمال النرويجى ، وقد ذهب المعهد

إلى الأراضى الفلسطينية المحتلة لكى يبحث ويدرس شكل علمى ومنهجى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والديموجرافية للفلسطينيين ، وظل يعمل عاما كاملا بشكل ميدانى وكان نتيجة هذا العمل تقريرا شاملا أعتبر أدق وأشمل مسح للأوضاع الفلسطينية والأراضى المحتلة ، أما على المستوى السياسى فقد خلق عمل المعهد وفريقه علاقات إنسانية وسياسية بين أعضائه وبين مسئولين اسرائيليين وخاصة يوسى بولين ، وبين شخصيات فلسطينية ، وكان جوهر هذه العلاقة هى الثقة التى تولدت لدى الجانبين الفلسطينى والاسرائيلى فى فريق العمل النرويجى . وكان هذا الفريق يضم الباحثة اللامعة Marionne Heeiberg وزوجة يوهان هولست ، ومدير المعهد رود لارسن Rod Larsen – وهو شخصية إلى جانب أساسه العلمى والأكاديمى كباحث فى الشئون الاجتماعية ، يتميز بالديناميكية والطاقة واتساع الأفق وتعدية للاعتبارات التقليدية والبيروقراطية والدبلوماسية التقليدية وكثير من الأحيان ، وكذلك زوجته Mona Jull الدبلوماسية بوزارة الخارجية النرويجية .

وكان نفس هذا الفريق هو الذى رتب ورعى وشارك فى المفاوضات التى جرت فى سرية مطلقة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وهى السرية التى حمت المفاوضات من أضواء والعلانية الأمر الذى كان حاسما فى توصلها إلى إتفاق .

بالاضافة إلى هذه العوامل التى صنعت الدور النرويجى كان هناك صورة النرويج باعتبارها دولة صغيرة ليس لها مصالح استراتيجية فى منطقة الشرق الأوسط وبشكل جعل ما تملكه النرويج ليس قوة ضغط على الجانبين وإنما قوة معنوية التى تستمدها من الدوافع الإنسانية والسلمية التى تحركها ولم تكن صورة النرويج تلك مهمة فقط بالنسبة لطرفى النزاع بل أيضا بالنسبة لقوى دولية مثل الولايات المتحدة حيث كان واضحا أن النرويج ليس لها مصالح خاصة أو مناوئة للآخرين .. كذلك كانت هناك العلاقة الخاصة التى ربطت حزبى العمل فى النرويج وإسرائيل من خلال عضويتهما فى الدولية الاشتراكية وهو ما ولد روابط شخصية بين قيادات وشخصيات الحزبين وبشكل كان من

الصعب قيام النرويج بهذا الدور فى ظل حكومة نرويجية من حزب آخر غير حزب العمل وكذلك الأمر مع إسرائيل .

واتصالا بهذا الاعتبار من المهم أن نعود إلى دور النخبة السياسية النرويجية في قبول هذا الدور وربط بلادها به ، والواقع أن من عرف المجتمع النرويجى يدرك الطابع المتحفظ له وأنه رغم جوهره الإنساني واهتمامه بالآخرين وهمومهم الأمر الذى يفسر الكثير من النشاطات والمبادرات الإنسانية ، إلا أنه لاعتبارات جغرافية ومناخية وتاريخية وحضارية ، يفضل أن يترك لحاله ، ولعل الموقف من رفض الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى هو أبلغ تعبير عن نزعات هذا الشعب وخصائصه الذاتية ، أما النخبة السياسية ، وخاصة شخصيات حزب العمل ، فإن خبرتهم الدولية جعلتهم أكثر انفتاحا على العالم وادراكا لقضاياه ، وتشابكها ، كما جعلتهم يطمحون لدور دولى لبلادهم ، أكبر مما يفرضه موقعها ، ويمتزج هذا التطلع بنوع من الثقة فى إمكان اضطلاع النرويج بمثل هذا الدور فقد كان وزير الخارجية ستولتبرج يدعو السفراء الأجانب أن ينظروا ويروا النرويج

لا على الخريطة وإنما على الكرة الأرضية Globe عندئذ سوف يروا النرويج فى قمتها ، وقد ساعد هذا الشعور ، وساعد الدور الذى قامت به النرويج بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، أن تقوم النرويج بأدوار مماثلة فى نزاعات أخرى ، وقوة ثقة الآخرين فيها ، حيث سنجد أنه قد تلى التوصل إلى اتفاق أوسلو، محاولة للتوفيق بين الأطراف المتنازعة فى جواتيمالا والتوصل بالفعل فى صيف عام ١٩٩٤ إلى اطار لهذا الحل ، والتوسط بين نيلسون مانديللا وحزب المؤتمر الوطنى فى جنوب أفريقيا وبين زعيم آخر هو بوتوليزى للاعداد للانتخابات كان مفروضا أن تحدث تمهيدا لانتقال السلطة إلى السود فى جنوب أفريقيا ، وكذلك محاولات منظمات غير حكومية نرويجية ، ولكن بدعم ورعاية من وزارة الخارجية النرويجية ، للتوسط فى الحرب الأهلية فى جنوب السودان سواء للتوصل بين الحكومة فى الخرطوم وبين حزب الجهة الشعبية فى الجنوب ، أو بين الفصائل المتنازعة داخل هذه الجهة .

□□□

ومادمنا قد ركزنا على الارتباط النرويجى باتفاق أوسلو فإنه من المهم أن نستكمل هذا بالرؤية النرويجية لهذا الاتفاق وحول معانيه الدولية والاقليمية ودوافع كلا من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية للتفاوض المباشر وعن المقدمات التى انطلقت منها المفاوضات ، وعن معانيه ودلالاته المباشرة وغير المباشرة ، وعن ما يعد به وما قد يتعرض له من أزمات، وعن طبيعة المفاوضات التى جرت والدور النرويجى المحدد فيها .

وسوف اعتمد فى هذه الرؤية على أحاديثى المباشرة مع وزير الخارجية النرويجى يوهان هولست فى الأيام التى تلت الاعلان عن الاتفاق ، وكذلك أحاديثه إلى أعضاء السلك الدبلوماسى فى أوسلو ، وعلى خطاباته التى القاها فى معاهد أكاديمية .

ففى السياق الدولى الأوسع رأى «هولست» الاتفاق الإسرائيلى الفلسطينى كدلالة على التغير الذى سوف يحدث فى النظام الدولى الجديد والذى اعتبر أنه فى الأغلب سيقدم حرية أكبر للعمل الدولى وتطبيقا لهذا المفهوم على الاتفاق فإن

طرفيه المباشرين كانا تقليديا جزءا من نسيج أوسع من الارتباطات العالمية والاقليمية ، إلا أن التغير الذى حدث والبيئة الدولية قدمت لهما حرية الحركة لكى يبادرا ويتفاوضا بشكل مباشر وحتى من خلال مفاوضات سرية ويتوصلا إلى اتفاق ، ومن معانى ذلك أن كلا الجانبين قد تملكا مصيرهما فى أيديهما ، اتصالا بهذا المفهوم ماهى الدوافع الأخرى التى حدت بإسرائيل ومنظمة التحرير إلى إجراء هذه المفاوضات المباشرة ؟ فى تفكير «يوهان هولست» فإن انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفييتى قد أزال لاعبا رئيسيا فى دراما الشرق الأوسط ، فقد فقدت منظمة التحرير الفلسطينية وإلى حد كبير مؤيدا تقليديا لها بل أن الاتحاد السوفييتى وبعد ظهور جورباتشوف وسياسته الجديدة قد أصبح أكثر اهتماما بتطوير مشاركته مع الأمريكيين أكثر من تحسين مواقعه فى الشرق الأوسط وبالإضافة إلى هذا التغيير فى البيئة الدولية المحيطة بالصراع العربى الإسرائيلى ثمة تغير إقليمى هو حرب الخليج الثانية التى غيرت فى نظر هولست الصراعات وكذلك المناخ فى الشرق الأوسط، ففشل العدوان

العراقى واكتساح ما كان يبدو قويا وممارسة إسرائيل لضبط النفس وتأكيد القوة العسكرية الأمريكية قد ساعدت فى تبديد كثير من الأساطير التى بنى عليها النظام القديم ، وبعدة طرق فإن منظمة التحرير أصبحت أكثر اقترابا من الحقيقة والواقع ومن الاتجاهات التى تكمن خلف السطح ، وبعد عاصفة الصحراء أصبحت المنظمة معزولة وخاصة عن مصادرها التمويلية فى دول الخليج وواجهت المنظمة أزمة اقتصادية عميقة تضمنت التهديد بأن العناصر المتطرفة التى تمولها سوريا وإيران سوف تتولى زمام الأمور ، ولابد أن العديد من الفلسطينيين قد توصلوا إلى نتيجة أنه عندما تتعقد الأمور فإن عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم فقط وإنهم لايستطيعون أن يتركوا مصيرهم فى أيدى الآخرين وأنهم يجب أن يتحملوا مسئولية مستقبلهم .

ويعطى هولست أهمية لتأثير بروز الحركات الأصولية فى الشرق الأوسط على دفع القوى المعتدلة إلى التقارب ، وفى هذا السياق فان كلا من إسرائيل ، وخاصة الحزب الحاكم فيها ، ومنظمة التحرير تنتمى إلى صفوف المعتدلين وإلى قوى

التحديث والعقلانية ، فبالنسبة للمنظمة فإن الانتفاضة يمكن أن تخرج عن السيطرة وتنتهى بأن يسيطر عليها الأصوليون، وبنفس المنطق فان هذا هو ما استخلصته القوى المعتدلة فى إسرائيل من تفضيل التعامل مع قوى الاعتدال الفلسطينى أكثر من أن تعيش فى وسط بحر من التطرف الأصولى الدينى ، كذلك أشار هولست إلى عنصر تغير الأجيال داخل إسرائيل ، فالجيل الذى اختبر الحروب وتأسيس الدولة فى إسرائيل قد تعدى عمره الزمنى وجاء جيل جديد إلى المقدمة ، وتساءل هولست هل يمكن لهذا الجيل أن يصنع السلام وهل على جيل المؤسسين أن يخلف أساسا أفضل للسلام ؟ وهل هم الآن مواجهون بفرصتهم الأخيرة لصنع التاريخ .

وإذا كانت هذه هى الاعتبارات الأشمل المتصلة بتغير البيئة الدولية والاقليمية وكذلك داخل المجتمعين الإسرائيلى والفلسطينى ، فإن ثمة اعتبارات فنية دفعت كلا الطرفين إلى التفاوض . فمن وجهة نظر هولست فإن إسرائيل ، وبالأحرى بعض قادتها الذين يتسمون بالنظرة البعيدة قد استخلصوا أنه من الأفضل التفاوض مباشرة مع منظمة التحرير أكثر من

الابقاء على المنظمة فى المقعد الخلفى ، كما تخلى هؤلاء القادة الإسرائيليين عن فكرة إن المفاوضات التى كانت تجرى فى واشنطون سوف تبرز قيادة فلسطينية بديلة فى الأراضى المحتلة ، أما على جانب المنظمة فقد خشيت أن المفاوضات مع إسرائيل والولايات المتحدة سوف تقوى من اليد الإسرائيلية باعتبار أن الولايات المتحدة موالية بشكل كبير لإسرائيل ولا يجعل منها وسيطا أمينا ، وما هو موازى فى الأهمية أن كلا الجانبين قد أدرك أن أى اتفاق يتوصلون إليه سيكون موضع خلاف فإن من الأهمية اضفاء أكبر قدر من الشرعية عليه والتزام كلا الطرفين به . مثل هذا الالتزام والشرعية سوف يتحققان بشكل قوى فى اتفاق يتم نتيجة مفاوضات مباشرة أكثر مما لو تم نتيجة وسيط وينظر إليه على أنه نتيجة جهود هذا الوسيط أكثر منه نتيجة جهود الأطراف أنفسهم ، وأنه فى حالة الوسيط ، سيكون من الأسهل لهذه الأطراف أن تصل إلى الاتفاق .

وليس من قبيل المبالغة أنه حين سيتعرض مؤرخو الدبلوماسية لاتفاق إعلان المبادىء فسوف يعتبرونه فصلا

جديدا فى إدارة المفاوضات ودبلوماسية المؤتمرات ولهذا اعتبر هولست أن المحادثات الفلسطينية الإسرائيلية التى جرت فى النرويج لاتتطابق مع النماذج التقليدية فى الدبلوماسية والتفاوض ، فماهى طبيعة وأسلوب وشكل هذا النموذج الجديد من المفاوضات؟ . وقد حرص هولست على توضيح أن المفاوضات قد قام بها مفاوضون مهرة وذوو خبرة وأنها كانت صعبة ومعقدة وتطلبت قدرا كبيرا من الجهد - وفرق هولست بين ثلاث مراحل مرت بها هذه المفاوضات التى استمرت تسعة أشهر : المرحلة الأولى التى يمكن وصفها بالمرحلة الاستطلاعية والتى بدأت من يناير حتى ابريل ١٩٩٣، وتضمنت ثلاث دورات من المفاوضات وسبعة لقاءات ، فى هذه المرحلة الاستطلاعية كان المفاوضون الإسرائيليون أكاديميون نوى روابط شخصية بالسلطات الإسرائيلية هذه المرحلة كانت إسرائيل مهتمة بشكل خاص على أن تكون قادرة على إنكار أى صلة رسمية وذلك من أن تكون مفاوضات لها صلة بمنظمة التحرير الفلسطينية فى حالة ما إذا فشلت المحادثات أو تسربت أنباء عنها ، أما المرحلة

الثانية فقد استمرت من نهاية ابريل حتى منتصف أغسطس وتضمنت مفاوضات بتفويض رسمى للتوصل لاتفاق إعلان للمبادىء والتى دخلت بها المفاوضات المرحلة الثالثة وتضمنت أحد عشر جولة من المفاوضات وكانت أساس الاعتراف المتبادل الذى تم بخطابات متبادلة بين الرئيس ياسر عرفات ورئيس الوزراء اسحاق رابين وخطاب من هولست إلى ياسر عرفات يوضح فيه كيف أنه سيدعو الشعب الفلسطينى إلى الامتناع عن استخدام العنف ، وعقب هولست على طابع السرية التى جرت بها المفاوضات ويعتبر أنها كانت ضرورية تماما من أجل منع المعارضين من افساد المحادثات خلال مراحلها ، وقد مكنت المفاوضات السرية الأطراف من التفاوض بشكل حقيقى وبمدى أسرع طالما أنهم اعفوا من واجب أن يعدوا متحدثين عن مصالحهم المتعددة بشكل تجنبوا فيه أن تسيطر عليهم مواقفهم المثالية ومطالبهم القصوى ومكنهم من أن يجدوا مؤشرات مشتركة ويقيموا أفضل النتائج اللاحقة ، وأوضح هولست ما اعتبره من المفاهيم الخاطئة حول سرية المفاوضات، فالأمر المهم فيها

ليس هو مجرد أن تجرى المفاوضات فى الضوء الغامر وهو أمر ليس ممكنا فى الواقع فى حالات تكون فيه مجرد فكرة المفاوضات مع الخصم موضع خلاف كبير ، وفى حالة المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية فقد جرت المفاوضات مع عدو وليس بين أصدقاء وعلى هذا الأساس يصبح الأمر المهم هو أن تقدم نتيجة المفاوضات إلى الرأى العام وفى ضوء النهار وحيث تتعرض للتقييم والموافقة الديمقراطية . ووصف هولست الشكل الذى جرت به المفاوضات بأنه كان ذا طابع غير رسمى بمعنى أنها لم تتضمن الشكليات والاجراءات المتصلة عادة بدبلوماسية المؤتمرات الدولية فلم تكن هناك وفود ذات أعداد ضخمة تتكون من رجال بملابس رسمية يحملون حقائبهم فى أيديهم ويواجهون بعضهم البعض عبر جوانبهم من المائدة وبشكل يساعد على زيادة الاحساس بالتباعد بينهم ويتفرقون بعد تحديد موعد اللقاء التالى . أما فى حالة المفاوضات الفلسطينية الاسرائيلية فقد تكون من ثلاثة أو أربعة أفراد لكل جانب وأصر المضيف النرويجى على الاحتفاظ بمناخ غير رسمى ومتقارب ولم يكن على الأطراف

أن يتفاوضوا معا بل كان عليهم أن يعيشوا ويأكلوا ويسيروا معا ويضحكوا معا وقد يتملكهم اليأس فى بعض الأحيان .

وقد حدثت كل جولات المفاوضات فى شمال النرويج خارج أوسلو وفى محليات صغيرة ذات منازل خشبية وكانت لغة العمل والحديث هى الانجليزية من أجل تفادى الاحساس الضار بالمسافة وسوء الفهم وضياع الوقت الذى قد ينشأ عن استخدام مترجمين .

ولكن ما هو حقيقة الدور النرويجى فى هذه المفاوضات ؟

أصر هولست على أن دور النرويج كان أساسا هو تقديم المناخ والبيئة المناسبة لتحقيق هذه المفاوضات وتسهيلها لهذا فإن دور النرويج أساسا كان دور المسهل facilitatior وهى لم تشأ أن تكون طرفا ثالثا فى المفاوضات ، كما لم يشأ أطرافها المباشرون ذلك ، إذا كان ذلك يكون ضد هدفها المباشر لذلك كان الجانب النرويجى مسئولا عن ترتيب الاتصالات بين الطرفين طالما أنه ليس هناك اتصال تليفونى مباشر بين إسرائيل وتونس - حيث كانت تقيم منظمة التحرير الفلسطينية . غير أن هولست قد نبه إلى أن الدور

النرويجى خاصة فى المرحلة الأخيرة من المفاوضات قد تعدى دوره فى تقديم التسهيلات الفنية لكى يصبح أكثر شمولا حيث تضمن دوره محاولات مباشرة للوصول إلى حلول وسط حين يختلف الأطراف وأن يقدم تقييما لاتجاه المفاوضات ويناقش التطور من وجهة النظر طويلة الأجل غير أنه عاد ليؤكد أن الاتفاق نفسه كان أولا وأخيرا هو عمل المفاوضين أنفسهم .

بالإضافة إلى هذه الجوانب الفنية فقد كان من الطبيعى أن يكون للجانب النرويجى رؤيته للاتفاق من حيث منطلقاته الأساسية وجوانب التركيز فيه ، والظلال التى تتضمنه وكذلك حول ما يعد به فى المستقبل وديناميكيته الخاصة وكذلك الأخطار والتحديات التى تواجهه ، فى هذا الشأن أعتبر هولست أن الأطراف قد بدأت من مقدمة أساسية هى أنه فى صراع عميق الجذور مثل الصراع بين الفلسطينيين والأمريكيين والذى خلق سلسلة من التصورات والمفاهيم ، فإنه يصبح من العقيم أن تتركز المفاوضات على الماضى بمفاهيمه وتصوراته المتبادلة أو حول الخطأ والصواب

والعدالة والمساواة وبدلا من هذا فقد كان لابد لهم أن يركزوا على المستقبل - أما المقدمة الثانية فهى أن ثمة قضايا ، بالنظر إلى المفاهيم المرتبطة بها ، يجعل من المستحيل البدء بالتفاوض حولها مثل قضايا القدس والمستوطنات والحدود ، فقد وجد أنه من الحكمة تأجيلها ومحاولة خلق عملية من التفاوض ، من خلال مرحلة انتقالية ، يمكن أن تغير من الاطارات السياسية (هذه المقدمة ، وارجاء القضايا الأساسية، أصبحت أكثر النقاط إثارة للجدل والانتقاد حينما تعثر تطبيق اتفاق إعلان المبادىء) وفى الأخذ بهذه المقدمة استعاد المفاوضون الخبرة الأوروبية فى إقامة المجموعة الأوروبية وتحويل الاطارات السياسية القائمة على الخصومة والعداء من خلال التعاون الاقتصادى والاعتماد على المصالح المشتركة والاعتماد المتبادل ، وكذلك استعادة خبرة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى وما أوحا به من امكانيات لتخطى المواجهة من خلال استغلال المصالح المشتركة - ولم يكن هولست يرى أهمية الاتفاق من مجرد قراءة نصه وإنما من خلال تغييره لمناخ الصراع وما يقدمه من بدائل وإن مالايمكن

تحقيقه اليوم فإنه من خلال ديناميكية التغيير يمكن أن يتحقق غدا ، وكان هولست دائم التنبيه إلى أنه فى العمل على تحقيق الاستقرار السياسى والكرامة الإنسانية والمساواة للشعب الفلسطينى فإنه لايمكن تجاهل مئات الألوف من الفلسطينيين الذين يعيشون فى معسكرات فى الأردن ولبنان.

وفى استشرافه لمستقبل الاتفاق كان هولست فى الأيام التى تلت الاتفاق يؤكد أن أصعب شىء هو تنفيذه ولذلك رأيناه بالتوازى مع انشغاله بالمفاوضات السياسية حول بدء تنفيذ الاتفاق كان مشغولا بالدرجة الأولى بالحاجة إلى دعم الاتفاق بجعل نتائجه وآثاره ملموسة للمواطن الفلسطينى وبحيث يشعر بتغير نوعى فى حياته من خلال التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبناء المؤسسات الفلسطينية وخاصة التعليمية مثل الجامعات والمدارس وبناء البنية التحتية من مياه وصرف صحى وطرق ومواصلات معتبرا أن هذا كله هو التحدى الرئيسى لذلك نجد أن جهد هولست قد اتجه إلى تعبئة الجهود الدولية لضمان تمويل عملية التنمية الاقتصادية

في الضفة الغربية وغزة ، وهي الجهود التي أثمرت في انعقاد مؤتمر واشنطون للمساعدات الدولية للفلسطينيين في أول أكتوبر ١٩٩٣ وتحققت فيه استجابة دولية مشجعة بلغت بليوني دولار وماتلا ذلك من رئاسته للجنة الاستشارية لمناقشة ووضع الآليات المناسبة والفعالة لإدارة عملية المساعدات الدولية . كذلك كان هولست مشغولا بالإدارة الفلسطينية السياسية والاقتصادية التي ستتولى السلطة عند بدء تنفيذ الاتفاق ، فعلى المستوى الاقتصادي كان يتمنى أن تكون المؤسسة الاقتصادية الفلسطينية التي تشرف على استخدام المساعدات الدولية من الكادرات الفنية المتخصصة أكثر منها الكادرات السياسية التقليدية ، كما كان مشغولا بعملية تحول منظمة التحرير الفلسطينية من مرحلة النضال السياسي إلى سلطة مسئولة تحتاج إلى كوادر تختلف في نوعيتها وقدراتها عن الكوادر الثورية التي تولت مرحلة النضال السياسي وكان يرى أن المرحلة التي تمر بها منظمة التحرير تشبه في هذا الجانب المرحلة التي واجهتها جبهة التحرير الجزائرية بعد الاستقلال مباشرة .

فى يناير عام ١٩٩٤ فجعت النرويج وفجعت الدبلوماسية الدولية بالوفاة المفاجئة ليوهان هولست حيث داهمته أزمة دماغية استمرت معه لأيام ، ولم يشك أحد أنها كانت نتيجة الجهد العقلى والنفسى الضخم الذى بذله خلال شهور المفاوضات وفى أعقابها ، وهكذا فقدت الدبلوماسية الدولية واحدا من شخصياتها البارزة ووجوهها الواعدة .

وعندما يتأمل المرء النهاية التى انتهت إليها اتفاقيات أوسلو والجهد والطاقة التى بذلها لإنجازها رجال كان دافعهم، أيا كانت التحفظات عليها ، هو إنهاء حالة الصراع والكراهية بين شعبين وانقاذ المنطقة من حروب مدمرة ، لابد أن يخلص ، بموضوعية وبلا تحيز ، أن ما يقف وراء هذه النهاية هو نمو وتصاعد بذرة العنف والتطرف الكامنة فى المجتمع الإسرائيلى ، والتى صاحبت إنشاء الدولة اليهودية ، والتى كرهت اتفاقيات أوسلو واعتبرتها نقضا لأحلام الدولة وأرض إسرائيل وعبرت عن هذه الكراهية فى البداية باغتيال إسحاق رابين الذين اعتبره مسئولا عن أوسلو ولأنه طلب

منهم أن يتذكروا أن هناك شعبا آخر يعيش إلى جوارهم ، وقد تصاعد هذا التيار المتطرف بمجىء نتانياهو والذى لم يخف فى حملاته الانتخابية أن اتفاقيات أوسلو ضد مصلحة إسرائيل ، وبلغ هذا التيار قمت بمجىء رمز العنف والتطرف أريل شارون الذى أجهز على كل شىء ، وهكذا تعيش المنطقة عصر التطرف الإسرائيلى والذى لايسمم المنطقة فحسب بل يسمم ، كما يقول بعض العقلاء الإسرائيليين، المجتمع الإسرائيلى .

وقفة تأمل

بعد انتهاء فترة عملى فى النرويج - أغسطس ١٩٩٤ - عدت إلى القاهرة ، لكى أتولى منصب مدير إدارة التخطيط السياسى بوزارة الخارجية . وقد ارتحت كثيرا لهذا الاختيار بل وطلبته ، فقد عملت فى السابق مرتين فى هذه الإدارة وكنت متحمسا لدورها ولما يمكن أن تؤديه ، وربما كنت متأثرا فى ذلك بدراستى للسياسة الخارجية الأمريكية وللدور الذى يلعبه فيها دبلوماسى ومؤرخ أمريكى بارز هو چورچ كينان ، صاحب نظرية الاحتواء Containment، والتى ظلت تحكم وتوجه السياسة الخارجية الأمريكية لقرابة نصف قرن ، وكان چورچ كينان هو الذى أسند إليه فى الأربعينيات مهمة إنشاء إدارة للتخطيط السياسى بوزارة الخارجية الأمريكية ، وهى الإدارة التى أشرفت على وضع تصور مشروع ماريشال الأمريكى لما بعد الحرب الثانية والذى كان من أدوات السياسة الأمريكية تجاه أوروبا بعد الحرب. وقد قرأت كثيرا فى أوراق كينان عن هذه الإدارة وعن تصوره لها وخلاصتها أنها إدارة تعكف على تصور وتوقع المستقبل ورسم السياسات للاستعداد لما يجد من أحداث وتطورات

والتكيف معها وقد كان كينان من الواقعية بحيث تصور أن دور وفعالية هذه الإدارة يتوقف على ما يعطيه لها وزير الخارجية من اهتمام ومكانه ، وقد ظلت هذه الإدارة تلعب أدوارا متفاوتة فى السياسة الخارجية الأمريكية عبر الادارات الأمريكية المتعاقبة وكنت ألاحظ اختيار من يراسها ويعمل بها من الكفاءات المشهود لهم وخاصة فى المجال البحثى والأكاديمى وخلال السنوات التى عملت فيها فى واشنطون ١٩٨٢ - ١٩٨٦ - تناوبت عليها شخصيات مثل بيتر رودمان، والذى كان اليد اليمنى لوزير الخارجية هنرى كيسنجر ، بول وولوفيتز الذى سوف يبرز كأحد أقطاب المحافظين الجدد ، كما كان من عناصرها المؤرخ اليابانى الأصل فوكوياما الذى سيشغل الناس فما بعد بنظريته حول «نهاية التاريخ» وآرون ديفيد ميللر ، خبير الشرق الأوسط والذى سيظل يعمل مع ٥ إدارات متعاقبة ضمن الفريق المختص فى النزاع العربى الإسرائيلى .

بهذا التصور عملت فى إدارة التخطيط السياسى حتى عام ١٩٩٠ كنائبا للمدير ، وأشهد أن الإدارة رغم حدود

الإمكانيات البشرية ، قد حققت بعض ما تصورته عن دورها ، واذكر بوجه خاص ما عكفت عليه ، خلال عهد مديرها السفير ممدوح عبدالرازق ، من وضع تصورا للحقبة المقبلة ، حقبة التسعينيات ، وما قد تحمله من تطورات إقليمية ودولية وانعكاساتها على سياسة مصر الخارجية وما يمكن أن تفعله للتكيف والتعامل مع هذه التطورات ، وعندما استعيد اليوم هذه الدراسة أشعر بالارتياح أن الكثير مما تصورته وتوقعته، بما فيها أحداث الاتحاد السوفييتى والعلاقة بين القوتين العظمتين ، قد توافقت مع ما شهدته حقبة التسعينات من تطورات وأرجو أن تكون هذه الدراسة ، الوثيقة ، مازالت فى أوراق وزارة الخارجية شاهدا على ما يمكن لهذه الإدارة أن تنجزه وتقدمه لصانع الغد فى السياسة الخارجية المصرية .

بهذه الخلفية توليت عملى كمدير لإدارة التخطيط السياسى عام ١٩٩٤ ، وحتى إنهاء عملى فيها ، وفى وزارة الخارجية فى العام ١٩٩٦ ويجب أن أقول أنه خلال العامين كان يراودنى إحساس بمهمة هذه الإدارة وما يمكن أن تفعله وتساهم فيه ، وإحساس آخر بالاحباط لضآلة إمكانياتها

البشرية إذ كنت أكاد أعمل وحدى فما يتعلق بالجهاز الدبلوماسى أما الجهاز الادارى فكان متوفرا إلى حد ما ، ورغم هذه الحدود فقد حاولت فيما كنت أرفعه لوزير الخارجية أن أحقق ، وفى مذكرات مختصرة وموجزة ، أن أحقق تصورى لدور هذه الإدارة فى التركيز على تحليل التطورات والأحداث الرئيسية على المستوى الاقليمى والدولى ، وما هو متوقع أن تتطور إليه هذه الأحداث وانعكاساتها على السياسة الخارجية المصرية .

وأشهد أن بعض هذه المذكرات كانت تعود إلى حاملة تعقيبات وملاحظات وزير الخارجية آنذاك السيد عمرو موسى.

واتصالا بذلك وبتصور جهاز الوزارة لدور هذه الإدارة ، كنت أشعر بالارتياح لاتجاه زملائى المشرفين على قطاعات العمل فى الوزارة لاشراكى فى الاجتماعات التى كانوا يعقدونها لمناقشة التطورات التى تقع فى قطاعاتهم ورسم تصور لخطوات السياسة الخارجية المصرية تجاهها ، كذلك كان من مصادر الرضا اختيارى عضوا فى مجلس شئون

السلكين ، وهو المجلس الذى يضم مساعدى وزير الخارجية ويعتبر أعلى جهاز فى الوزارة مسئولا عن شئون أعضاء السلكين الدبلوماسى والقنصلى .

كان ٢٨ يونيو ١٩٩٦ هو آخر يوم عمل لى بوزارة الخارجية وأنا أقف على العتبات الأخيرة لمبنى الوزارة الجديد فى ماسبيرو ، والسيارة تقلنى فى طريق العودة إلى منزلى ، كانت تراودنى مشاعر ثلاثة : شعور بالتقدير والامتنان ، وشعور بالاطمئنان والارتياح ، وشعور بالأمل والتوقع .

الشعور بالتقدير والامتنان كان لوزارة الخارجية التى منحتنى انضمامى إليها الفرصة ، أو فى الواقع الشرف، لأن أكون من بين القلة ، وربما النخبة ، التى اختيرت لكى تكون وجه مصر فى الخارج ، والمتحدثة باسمها ، والمدافعة عن مصالحها ، والفرصة كذلك لكى اتنقل بين مناطق العالم المختلفة وأختبر وأعيش وأتعرف على حضارات وثقافات وتجارب مختلفة .

والشعور الثانى هو الرضا المتواضع عن النفس والارتياح، البعيد عن التفاخر ، لأنى فى كل موقع عملت فيه،

فى الداخل والخارج ، قد بذلت أقصى ما استطعت لأداء واجبى ولكى يكون هذا الأداء كفؤا ومشرفا ، وكان من حسن حظى أن شاركتنى سيدة كانت دائما وجها مشرفا لمصر فى الخارج .

أما الشعور الثالث فهو الأمل والتوقع أن نرى دائما هذه المؤسسة الوطنية وقد ترسخ دورها كخط الدفاع الأول عن المصالح المصرية بكل ما يتطلبه هذا من تنظيم وإدارة وكفاءات بشرية الأمر الذى يضاعفه الأعباء والمهام المتزايدة التى أصبحت تواجهها كل أجهزة وزارات الخارجية فى العالم، وخلال السنوات التى أعقبت تركى للخدمة كنت أشعر بالارتياح والأمل وأنا أرقب أجيالا جديدة تلتحق بالعمل بالوزارة وألحظ أداءها المبشر وتسلحها بالعلم والوعى بمتطلبات ما ينتظرها من مهام ، وإن كانت ستظل تحتاج إلى الاهتمام والرعاية والقيادة الرشيدة .

وخلال هذين العامين – ١٩٩٤ – ١٩٩٦ ، على مستوى اهتمامى العلمى والبحثى ، انجزت كتابين اعتز بهما ، كان الأول ترجمة لرسالة للدكتوراة لباحث أمريكى هو جيفرى آرنسون ، خصصها للعلاقات الأمريكية المصرية فى الفترة

من ١٩٤٦ - ١٩٥٦ ، وقد جذبني في هذه الدراسة موضوعية الكاتب ونزاهته وانصافه للسياسة المصرية في تعاملها مع السياسة الأمريكية حول قضايا الشرق الأوسط وقضايا العلاقات الثنائية وخاصة تمويل مشروع السد العالى، أما الكتاب الثانى فكان مواصلة واستكمالا لما بدأته من دراسة العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب الثانية وجوهرها تطور العلاقات الأمريكية السوفيتية ، وقد ظهرت هذه الدراسة فى كتابين : «قراءة جديدة للحرب الباردة» والتى رصدت العلاقات الدولية من نهاية الحرب الثانية حتى أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ ، أما الكتاب الثانى فكان حول «الوفاق الأمريكى السوفيتى» كما تطور وتبلور فى الفترة من عام ١٩٦٢ حتى عام بداية أفول هذا الوفاق وانتكاسته عام ١٩٧٦ ، ولذلك كان الكتاب الجديد يحمل عنوان «من الحرب الباردة إلى البحث عن نظام دولى جديد» وكان يناقش التطورات على المستوى السوفيتى والأمريكى التى قادته فى نهاية الحرب الباردة وبدء عملية البحث عن هوية النظام الدولى الجديد ومستقبله وهل سيكون أحاديا أم ثنائيا أم متعدد الأقطاب .

كان من الطبيعى أن تكون نهاية عمل الإنسان الرسمى بانتظامه ومسئولياته اليومية وما يفتحه من آفاق ، مرحلة حرجة فى حياة الإنسان يشعر فيها بالانفصال عن الحياة من حوله ويصبح أمامه إما الركون إلى المنزل أو اللجوء إلى النوادى ، غير أنى لحسن الحظ لم أمر بهذه الفترة حيث شغلت نفسى ، ربما بوتيرة أكبر ، بالتأليف والكتابة ، وخلال سنوات قليلة انجزت ثلاث كتب سوف يلاحظ عليها أنها كانت حول شخصيات دبلوماسية وفكرية ، فقد بحثت وكتبت عن : المؤرخ والدبلوماسى الأمريكى چورچ كينان صاحب النظرية الشهيرة عن «الاحتواء» التى ظلت تحكم وتوجه السياسة الخارجية الأمريكية لقرابة نصف قرن فى إدارة علاقتها مع الاتحاد السوفييتى ، وفى دراستى له اكتشفت له جانبا آخر وهو جانبه الفكرى ورؤاه النقدية للحضارة الغربية والأمريكية بل وللنظام السياسى الأمريكى ، وكانت الشخصية الثانية هى الدبلوماسى ورجل الدولة السويدى داج همرشولد الذى شغل منصب سكرتير عام الأمم المتحدة ١٩٥٣ - ١٩٦٠ وكان أداؤه فى هذا المنصب متميزا ومجددا لعمل المنظمة

وأدوارها، وفى دفاعه الشجاع عن استقلالها وعن دورها فى خدمة الدول الجديدة ، وهو الدفاع الذى دفع حياته ثمنا له ، أما الوجه الآخر الذى اكتشفته فيه فهو المثقف والمفكر والفيلسوف ذو النظرات العميقة والمتأملة فى قضايا الكون والمصير الإنسانى وهو ما عكسه فى كتابه الصغير العميق markings، أما الشخصية الثالثة فهو المؤرخ المرموق آرنولد توينبى ، الذى كرس حياته لرصد وتتبع تاريخ الحضارة البشرية وأودعها فى عمله الضخم ذو الأثنى عشر جزءا «دراسة فى التاريخ» study of history ، وكان ما جذبنى فيه هو ما اتصف به فى عمله من روح الانصاف سواء فى معالجة لقضايا معاصرة مثل القضية الفلسطينية ودور الحضارات غير الغربية فى تطور الحضارة الإنسانية ونقده لمركزية الغرب ولأساليبه وتسلطه على مناطق العالم الأخرى .

أما كتابى الرابع فى هذه المرحلة فكان حول شخصيات ومفكرين مصريين هم : قاسم أمين ، ومحمد حسنين هيكل ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، ويحيى حقى ، وحسين فوزى ، وقد بحثت فيهم وفى كتاباتهم من وجهة نظر مدى تأثرهم

العقلى والثقافى بالغرب وإلى أى حد أثر هذا فى هويتهم الثقافية وانتمائهم ومحاولتهم التوفيق بين تراثهم الحضارى ومقوماته وبين حضارة الغرب ومناهجه ونظام حياته .

أما الكتاب الخامس فقد كان من إلهام فترة عملى فى منطقة اسكندنافيا ويباعث من اهتماماتى الأدبية وباعتقادى أن عمل الدبلوماسى وأدائه لن يكتمل إلا بالتعرف على ثقافة المجتمع الذى يعيش فيه ، ولهذا اهتممت بقراءة مجموعة من أدباء هذه المنطقة ذوى المكانة العالمية من أمثال : هنرى أبسن، كنوت همسون ، وستروندبرج ، آندست ، وساعدنى ما جمعته عنهم من مادة وفيرة سواء من أعمالهم أو ما كتب عنهم أن أقدم كتابا عنهم .

سوف يتداخل مع هذه المرحلة الخصبة التى كنت سعيدا بها تطور جيد وهو ظهور «المجلس المصرى للشئون الخارجية» الذى فكر فيه وبادر إليه إثنان من أبرز الدبلوماسيين المصريين وهما السفير عبدالرؤوف الريدى ، والسفير الدكتور محمد شاكر ، وحيث اعتبروا بخبرتهم الدولية أن مصر بدورها الدبلوماسى الإقليمى والدولى

تستحق أن يكون لديها مجلس للشئون الخاصة يجتذب الشخصيات المهتمة بقضايا السياسة الخارجية من مختلف الطبقات : الدبلوماسية والأكاديمية ، ورجال الأعمال و رالعسكريين والإعلاميين وبهذه الرؤية ، وبالتعاون مع وجه لامع هو الدكتور أسامة الغزالى حرب والمحامى الدولى المتفتح الدكتور بهى الدين الابراشى ، استطاعوا أن يضعوا أساس هذا المجلس الذى سوف يؤكد نفسه فى السنوات التالية كمنبر لمناقشة قضايا السياسة الخارجية ، وأن يكون وجهه شخصيات ووفود أجنبية لكى يلتقوا مع ممثلى المجتمع المدنى المصرى ولكى يستمعوا إلى وجهات نظرهم حول قضايا مصرية واقليمية ودولية ، وقد كان من حسن حظى أن اشارك فى الاجتماعات التأسيسية لهذا المجلس ، ثم بعد ذلك وبثقة سوف أظل اعتز بها ان اختار مديرا تنفيذيا له ، وعلى مدى خمس سنوات حتى الآن مارست هذا ورغم مسئولياتى اليومية الفنية والتنظيمية فى عمل المجلس ، إلا أنى واظبت على التعليق وتحليل قضايا السياسة الخارجية فى الصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية ، وهو ما شكل كتابين

لى : كان الأول عن حقبة التسعينيات وعما شهدته من تطورات فى النظام الدولى عقب انتهاء الحرب الباردة ، وما ظهر خلالها من أفكار ونظريات وما شهدته من مجادلات حول مستقبل النظام الدولى والقوة أو القوى التى ستحكمه . أما الكتاب الثانى فقد خصصته لدراسة السياسة الخارجية الأمريكية فى السنوات ٢٠٠٠ - ٢٠٠٥ والتى شهدت نهايات إدارة كلينتون ومجىء إدارة بوش بفكرها وفريقها المحافظ وتبنيها لمفاهيم واستراتيجيات سوف تؤثر بشكل عميق على علاقات أمريكا بالعالم .

فهرس

مفاجأة هلال ديسمبر

الرئيس مبارك يهنئ نجيب محفوظ ويكتب للهلال

الهلال



رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

كتاب الهلال
مفاجأة

لأول مرة
ديوان الهلال
الشاعر حلمى سالم
فى

مدائح جلطة المخ

يصدر : ٥ يناير ٢٠٠٦

روايات الهلال
عدد ديسمبر ٢٠٠٥

دموع الجيوكنده

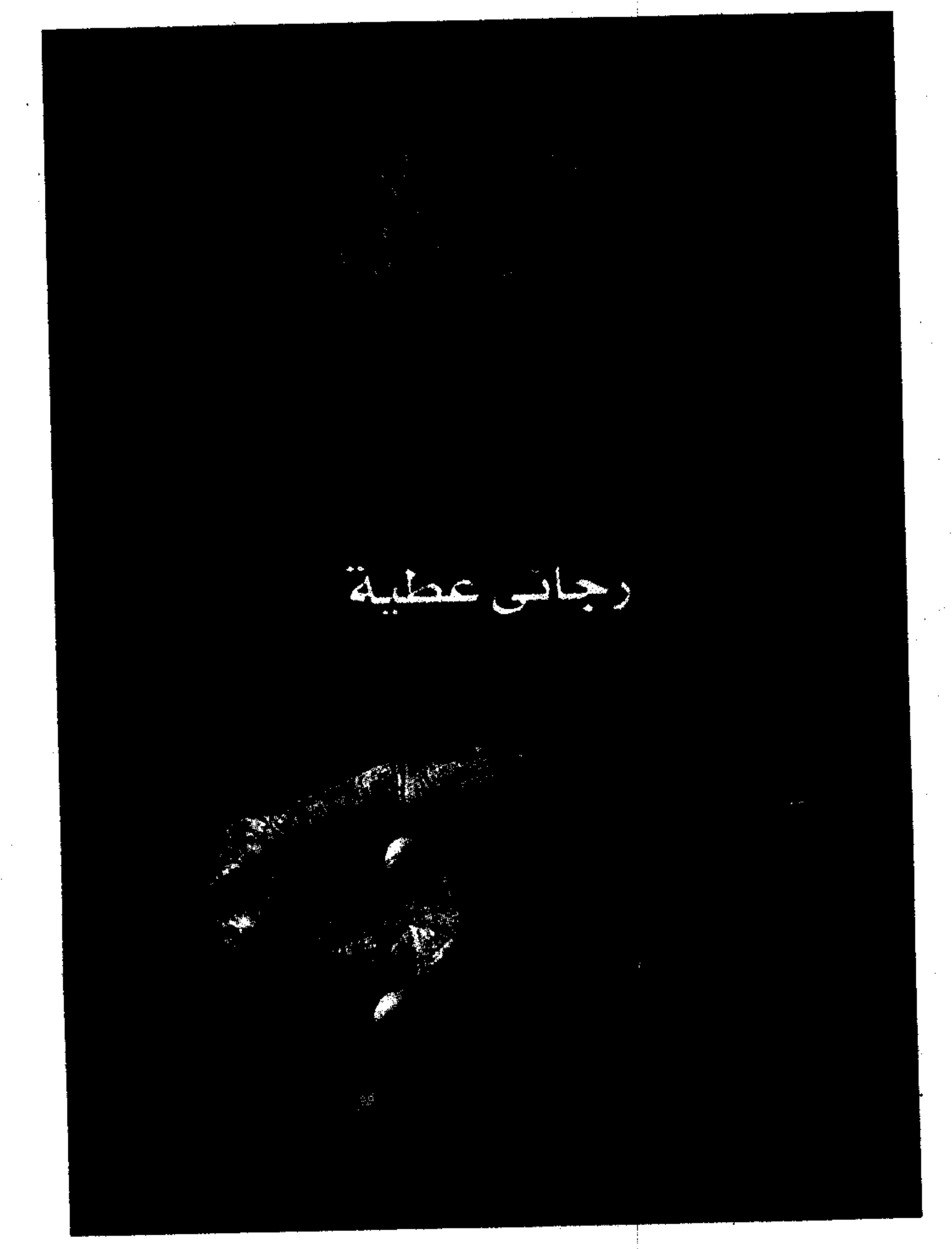
للكاتبة المصرية:
نادية شكرى

تصدر : ١٥ ديسمبر ٢٠٠٥

أحدث إصدارات كتب الهلال عامى ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥

اسم الكتاب	المؤلف	الشهر	السنة
مشيناها خطى «سيرة ذاتية»	د. رءوف عباس	ديسمبر	٢٠٠٤
القراءة الصهيونية للتاريخ الحروب الصليبية نموذجا	د. قاسم عبده قاسم	يناير	٢٠٠٥
الإسلام والدولة المدنية	د. عبدالمعطى محمد بيومى	فبراير	٢٠٠٥
فى أصول المسألة الحضارية	د. أنور عبدالملك	مارس	٢٠٠٥
الجماعة الوطنية العزلة والإندماج	طارق البشرى	ابريل	٢٠٠٥
أرثر ميللر أبو المسرح الأمريكى	د. عبد العزيز حمودة	مايو	٢٠٠٥
مسيرتى ومصر نحو القرن الحادى والعشرين	د. مصطفى سويف	يونيه	٢٠٠٥
صدمة الانترنت وأزمة المثقفين	د. أحمد صالح	يوليه	٢٠٠٥
أحمد حسنين أسرار السياسة والحب	محمود صلاح	أغسطس	٢٠٠٥
مصر والإصلاح السياسى	د. يونان لبيب رزق	سبتمبر	٢٠٠٥
الإنسان والكون والحياة	رجائى عطية	أكتوبر	٢٠٠٥
حكاية الفن والنجوم	ألفريد فرج	نوفمبر	٢٠٠٥

رقم الإيداع
٢٠٠٥/٢١١٣٨
I.S.B.N
977-07-1169-1


رجائى عطية

أحدث إصدارات دار الهـلال

